الكون والإنسان
في التصور الإسلامي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الدكتور حامد صادق قنيبي
استاذ مساعد بجامعة البترول والمعادن
الظهران - السعودية

الكون والإنسان في التصور الإسلامي

مكتبة الفلاح

الطبعة الأولى

١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م

الناشر: مكتبة الفلاح - الكويت

ص.ب ٤٨٤٨ - الكويت - شارع بيروت - عمارة الحساوي

مقابل بريد حولي - تلفون ٥٤٧٧٨٤

المقدمة

يبصّر القرآن الانسان بالكون الذي حوله على أنه جملة من المشاهد المخلوقة أبدعها الله عزّ وجل في انتظام، وتناسق لتحقيق أغراضه، والتي أهمها:

أن يتدبر الانسان الكون ، ويتأمل مدى دقته وتناسق نواحيه وأجزائه ، ليتوصل من ذلك الى الايمان بالله ، ويدرك وحدانيته وحق ألوهيته وربوبيته المطلقة ، وتنزيهه عن الصاحبة والولد والشريك ، ثم يخلص العبودية لهذا الاله العظيم . وفي هذا يقول سبحانه: ﴿إنَّ في خَلْقِ السَّمواتِ والأرضِ واخْتِلافِ الليلِ والنهّارِ والْفُلْكِ التي تَجْري في البحرِ بما يَنْفَعُ النّاسَ، وما أَنْزَلَ اللهُ من السّماءِ من ماءٍ فأحيا به الأرضَ بَعْدَ موتِها وبثَّ فيها من كلِّ دابّةٍ وتصريفِ الرّياحِ والسَّحابِ المُسَخّرِ بين السّماءِ والأرضِ لآياتٍ لقومٍ يعقلون﴾[1] .

ويقول: «إنَّ في خَلْقِ السّمواتِ والأرضِ واختلافِ الليلِ والنهّارِ لآياتٍ لأولي الألبابِ، الذين يذكرونَ اللهَ قياماً وقعُوداً وعلى جنوبِهم، وَيَتَفَكَّرُونَ في خلقِ السّمواتِ والأرضِ ، رَّبنا ما خَلَقْتَ هذا باطلاً، سُبْحانَكَ، فقنا عذابَ النّار»[2].

وعندما يتلقى الانسان منهجه عن ربه تتحدد علاقته بالكون من حوله ، فيدرك أن كلّ ما في الكون مسخّر لخدمته ومصلحته تمكينا له في الأرض ليجد ـ بمقدار ما يتسع له ادراكه وعلمه ـ دواء لمصائبه وحلا لمشكلاته وفائدة لحياته . ومن ثمّ على

---

(١) البقرة : ١٦٤

(٢) آل عمران : ١٩٠ ، ١٩١

الانسان أن يقبل على الكون تفهما له واستفادة منه . وفي ذلك يقول الله عزّ وجل في عبارة عامّة شاملة : « هو الذّي خلق لكم ما في الأرض جميعا »[1] .

ثم يقول في بيان مفصل : ﴿الله الذّي خَلَقَ السّموات والأرضَ وأنزلَ من السّماءِ ماء فَأَخْرَجَ به من الثّمراتِ رزقاً لكم وَسَخر لَكُمُ الفُلكَ لتجريَ في البحر بأمره وسخر لكم الأنهارَ، وسخّر لكم الشّمسَ والقمرَ دائبين وَسخّرَ لكم الليلَ والنّهار﴾[2]. وقال: ﴿وَسخّر لكم ما في السّمواتِ وما في الأرض جميعاً منه، انّ في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾[3]. والقرآن يحذر الانسان من أن ينظر الى شيء من مظاهر الكون وفوائده المختلفة على أنه مما يجب الصدور عنه وعدم أشغال الذهن أو الحياة به، رهبة أو تزهدا أو تعبدا، ويقول: ﴿قل من حرّم زينة الله التيّ أخرج لعباده والطّيّبات من الرزق﴾[4].

واذن ، فجملة ما يقرره القرآن عن الكون أنه مسخّر للانسان ، يفيد منه الانسان بمقدار ما يتأمل ويستبطن ظواهره ، ويستثمر طيباته ، وينطلق في آفاقه . ولعلّ كلمة (التسخير) من أقوى التعابير في الدّلالة على الخدمة المستقرة الدّائبة ، وعلى أنّ للانسان أن يفيد منه ويسخّره لصلاحه في المعاش الدنيوي والمعاد الأخروي .

وتتمّم عقيدة الايمان بالجزاء في الحياة الأخرى عقيدة الايمان بالله ، وبهما معا يرتبط الانسان في رحلته الشاقة الطويلة بالكون وهذا ما نحاول عرضه ان شاء الله :

ففي **الفصل الاول** ندرس الجوانب اليقينية لتتبينّ حقيقة العلاقة بين الله والكون ، كما نحاول أن نتبين كيف اتخذ القرآن من المشاهد دلائل على الايمان بالله وبالكتاب وبالنبوة وبالحياة الآخرة .

---

(١) البقرة : ٢٩
(٢) ابراهيم : ٣٢ - ٣٣
(٣) الجاثية : ١٣
(٤) الأعراف : ٣٢

وفي **الفصل الثاني** ندرس الجوانب الانسانية لنتبين حقيقة العلاقة بين الانسان والكون فنتحدث : عن تسخير الكون للانسان ، وعن منزلة الانسان في الكون ، وعن الترهيب والترغيب في الدنيا والآخرة .

وبعد ؛

فلقد حاولت في هذه الدراسة أن القي نظرات جديدة على الكون والانسان في التصور الاسلامي ، وحاولت الالمام بالموضوع من جميع جوانبه ، ولا أزعم أن محاولتي هذه قد بلغت الكمال ؛ لأن الله جعل القرآن معجزة باقية على وجه الدهر لا تنقضي عجائبه ، ولا تخلق على كثرة الترداد جدّته ، وسبحانه القائل :

﴿قل لَو كان البحرُ مِداداً لكلماتِ ربيّ لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدادا﴾[1] .

ولقد سرت على النهج العلمي في هذا البحث ، مستعينا في ذلك بجهود من سبقني من الدارسين لكتاب الله الذي ما يزال يمدنا بأقباس من النور تفيدنا في دراستنا وأدبنا وحضارتنا . . . والله من وراء القصد وهو الهادي لسواء السبيل .

الدكتور حامد صادق قنيبي

عمّان ـ ربيع الاول ١٣٩٩ هـ
شباط ١٩٧٩ م

---

(١) الكهف : ١٠٩

الفصلُ الأوّل

الجوانب اليقينيّة

أولاً ـ الإيمان بالله

١ـ إثبات وجود الله
٢ـ الدلالة على وحدانية الله وتنزيهه
٣ـ الدلالة على قدرته، ورحمته وتدبيره وحكمته وسعة علمه

ثانياً ـ الايمان بالكتاب والنبوة والبعث

١ـ الكتاب
٢ـ النبوة
٣ـ البعث والنشور

أولاً : الإيمان بالله

وجوده - وحدانيته وتنزيهه - قدرته ورحمته وتدبيره - سعة علمه

جاء الاسلام في وقت تاهت فيه الأفكار ، وتراكمت فيه العقائد والتصورات ، والفلسفات والأساطير ، والأوهام والشعائر والتقاليد . . . وحاد الناس عن الحق الى الباطل ، وعن التوحيد الى الشرك ، واختلط الدين بالخرافة ، والفلسفة بالأسطورة ، وعبد الناس عناصر الكون وظواهره كالشمس والقمر والنجوم والأنهار والجبال والرعد والبرق . . ولم تخل حضارة من الحضارات - التي عاصرت القرآن - من لوثة الوثنية ، ولم تنأ عن تعدد الآلهة[1] .

وفي وسط هذا التيه المعمّى كان أهل الكتاب من يهود ونصارى يشركون بالله ما لم ينزل به سلطانا . وقد حكى القرآن كثيرا عن انحرافهم وسوء تصورهم لله سبحانه وتعالى وشركهم ووثنيتهم :

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ : عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ ، وَقَالَتِ النَّصَارَى : الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ . ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِم ، يُضَاهِئُونَ(*) قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾[2] .

بل لقد دخل كثير من التصورات الوثنية الأسطورية عقيدة النصارى فقالوا

---

(١) انظر خصائص التصور الاسلامي ومقوماته - القسم الاول - سيد قطب ص ٢٤ وما بعدها - الطبعة الثانية ، ١٩٦٧ م .

(*) يضاهئون : يشابهون في الكفر والشناعة قول المشركين العرب والوثنيين في الهند ومصر القديمة والأغريق

(٢) التوبة : ٣٠

بالتثليث ، وبأن المسيح ـ عليه السلام ـ هو الله ، بل هو خالق السموات والأرض ، أو به خلقت السموات والأرض[1] .

﴿ لَقَد كَفرَ الَّذيْنَ قالوا: إنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيْحُ ابْنُ مَرْيَمَ . وقَالَ الْمَسِيحُ : يَا بَنِي اسرْائِيلَ اعْبُدُوا اللّهَ ، ربِّي وَرَبَّكمْ ، إنَّهُ مَن يُشرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ حرَّم اللّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ ، وَمَأوَاهُ النَّارُ ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَار . لَقَدْ كَفرَ الَّذِيْنَ قَالُوا : إنَّ اللّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ. وَمَا مِنْ إلَهٍ إلاَّ إلهٌ وَاحِدٌ .وإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِيْنَ كَفرَوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيْمٌ ﴾[2].

أما عرب الجاهلية ، فقد تغلغلت عقائد الشرك في حياتهم ، ومع أنهم لم يكونوا ينكرون الله ، وكانوا يعترفون بوجوده وبخلقه السموات والأرض ، كما هو ظاهر من حديث القرآن عنهم في مواضع عدة منه : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُم مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ لَيَقُولن اللّهُ ، قُلِ الْحَمْدُ لِلّهِ ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾[3] ، الا أنهم مع ذلك ، كانوا يعبدون من دون الله أوثانا ، مختلفة الصور والأشكال ، متباينة الصنوف والأسماء حتى قيل : « ان لكلّ قبيلة صنمها ولكل بيت صنمه » كما يروي ذلك الاخباريون[4] .

قال تعالى : « أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى ، وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى ؟ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى ؟ تِلْكَ إذنْ قِسْمَةٌ ضِيْزَى(*) ! إنْ هِيَ إلاَّ أَسماءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَان . إنْ يَتَّبِعُونَ إلاّ الظنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدى . أَمْ لِلإنْسَانِ مَا تَمَنَّى ؟ فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى . وَكَم مّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لاَ تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً ، إلاَّ مَن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى إنَّ الَّذِيْنَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلاَئِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثَى . وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ ، إن يَتَّبِعُونَ إلاَّ

(١) انظر المنار ١٠/ ٣٨٦ وما بعدها . ط٤ بالقاهرة ١٩٥٤ م
(٢) المائدة : ٧٢ ـ ٧٣
(٣) لقمان : ٢٥ وانظر العنكبوت ٦١ ، ٦٣ والزمر ٣٨ والزخرف ٩ ، ٨٧ .
(٤) انظر كتاب الاصنام للكلبي ص ٣٤ وما بعدها .
(*) ضيزى : جائرة

الظَّن ، وَإِنَّ الظَّـنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً ﴾[1]

أمام هذا الركام الهائل والتيه الشامل من التصورات والعقائد المنحرفة ، وجّه الاسلام عنايته الكبرى لتحرير أمر العقيدة ، وتصحيح التصورات والمفاهيم ، وبصّر الناس بالههم الواحد ، وردّهم الى عبادته وحده ، وقد اتخذ القرآن من مشاهد الكون المنظور ، ومشاهد الآخرة دلائل على وجود الله ، ووحدانيته ، وبيان قدرته ، وتدبيره ورحمته وعلمه . . الى آخر ما هنالك من مفهومات نحاول بيانها فيما يلي :

---

(١) النجم : ١٩ ـ ٢٨

- ١ -

إثبات وجود الخالق

ان الخالق - الذي شاء سمو شأنه وجلال قدره أن لا تدركه حواسنا ، لم يتركنا هكذا في بيداء الحياة الدنيا ، بل تجلّى لنا في كتابين خالدين : .كتاب نراه ونحس به هو الكون أو الكتاب المنظور ، وكتاب نقرؤه ونرتله هو القرآن الكريم أو الكتاب المسطور معجزة النبي الخالدة .

وقد عرض الكتاب المسطور كثيرا من مشاهد الكون السماوية والأرضية ، وساق هذه المشاهد لتحقيق أغراضه ومقاصده . ولعلّ أهمها مسألة وجود الخالق ووحدانيته . يقول الاستاذ الامام : « للاسلام في الحقيقة دعوتان : دعوة الى الاعتقاد بوجود الله وتوحيده ، ودعوة الى التصديق برسالة محمد ﷺ ، فأما الدعوة الأولى فلم يعول فيها الا على تنبيه العقل البشري وتوجيهه الى النظر في الكون واستعمال القياس الصحيح والرجوع الى ما حواه الكون من النظام والترتيب ، وتعاقد الأسباب والمسببات ليصل بذلك الى أن للكون صانعا واجب الوجود عالما حكيما قادرا ، وأن ذلك الصانع واحد لوحدة النظام في الأكوان . وأطلق للعقل البشري أن يجري في سبيله الذي سنته له الفطرة بدون تقييد فنبه الى أنّ خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار وتحريك الرياح على وجه يتيسر للبشر أن يستعملها في تسخير الفلك ومنافعه ، وارسال تلك الرياح لتثير السحاب فينزل من السحاب ماء فتحيا به الارض بعد موتها وتنبت ما شاء الله من النبات والشجر ، مما فيه رزق الحي وحفاظ حياته ، كل ذلك من آيات الله على أن يتدبر فيها ليصل الى معرفته »[1] .

---

(١) الاسلام بين العلم والمدنية - محمد عبده ص ١١٥ - كتاب الهلال عدد ١١٤ سنة ١٩٦٠ م .

ويتكرر الاحتجاج بخلق السموات والأرض على اثبات الخالق ، والقرآن يعمد الى تنبيه الحواس والمشاعر ، وفتح العيون والقلوب ، الى ما في هذا الكون العظيم من غرائب ، تلك التي أفقدتها الألفة غرابتها . والقرآن اذ يلفت النظر الى السموات والأرض وتكوينهما ، انما يوجه الحسّ الى أضخم ما يتراءى في هذا الكون العريض. فهو يلفت النظر الى السموات بنجومها وكواكبها وأفلاكها ، والى هذا التناسق العجيب الذي يربطها جميعا ، ويلفها جميعا ، والى هذا الفضاء الهائل الذي تسبح فيه تلك العناصر الضخمة من غير أن يصيبها اختلال ، او يعتورها انحلال .

هذه الضخامة الحسية ، وهذا التناسق الأخّاذ ، ينبغي أن يلفتا الانسان ويدعواه الى التأمل الواعي ، الى ما وراءهما من قدرة كامنة وعظمة مستقرة . هذه المشاهد التي في السموات والأرض ، كادت الألفة تذهب برونقها في النفوس ، وتزيل تأثيرها في العقول ، لولا أن القرآن راح يعرضها مرات عديدة ، على تلك النفوس والعقول ، بذلك الأسلوب الأخاذ ، ليعيد طراوتها في الأذهان ، فكأنها ترى لأول وهلة .

وهو ايضا يلفت النظر الى هذه الأرض الممتدة الفسيحة ، وانها ـ مع تكويرها في الحقيقة ـ لتبدو منبسطة أمام العين ، وقد ازدحمت بالنعم الوفيرة ، من أنهار جارية ، وأشجار مثمرة ، وزروع نضرة ، وجبال شامخة راسية ، وبحار واسعة مترامية ، رفّت في جوانبها الطيور المغردة ، وداعب النسيم ما عليها من زينة ، فبدت كأنها عروس تختال في حللها ليلة زفافها . هذه وتلك آيات الله المنظورة ، المعروضة على الحسّ والفكر ، وعلى الوجدان والعقل .

يقول سبحانه :﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾[1] .

فالذي خلق السموات والأرض هو الله . وهو المتفرد بالألوهية فيهما على السواء . وكل ما في الكون يدل على عظم المنشيء وجلاله ووحدانيته . قال الرازي : « اعلم

---

(١) الانعام : ١

أن المقصود من هذه الآية ذكر الدلالة على وجود الصانع . وتقريره أنّ أجرام السموات والأرض تقدرت في أمور مخصوصة بمقادير مخصوصة ، وذلك لا يمكن حصوله الا بتخصيص الفاعل المختار »[1] . ثم بين بعد ذلك وجوها في دلالة ما في السموات والأرض على وجود الله سبحانه : من تقدير هذه الأجرام بمقادير معينة ، وترتيب أفلاكها ، ومداراتها ، واختصاص كل فلك بمدار معين ، ثم توجيه حركتها[2] .

ووجود السموات والأرض ، وتدبيرهما وفق هذا النظام الواضح ، لم يكن لهوا ولعبا ، وانما هو متلبس بالحق الذي ينبغي أن يوحي بوجود الله ، وبقدرته التي تكمن في هذا الخلق الضخم العجيب : يقول الحق سبحانه : ﴿ حم . تَنْزِيْلُ الْكِتَابِ مِنَ اللّهِ الْعَزِيْزِ الْحَكِيْم . مَا خَلَقْنَا السَّمٰوَاتِ والأرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِيْنَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ ﴾[3].

ففي الآيات الكريمة تأكيد للعلاقة بين كتابي الله المسطور والمنظور ، فكلاهما قائم على الحق والتدبير . فتنزيل الكتاب « من الله العزيز الحكيم » هو مظهر للقدرة وموضع للحكمة . وخلق السموات والأرض وما بينهما متلبس بالحق « ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما الاّ بالحق » . . وبالتقدير الدقيق : « وأجل مسمى » تتحقق فيه كلمة الله من خلقه ، ويتم فيه ما قدره له من غاية[4] .

وكلا الكتابين مفتوح ، معروض على الأسماع والأنظار ، ينطق بقدرة الله ويشهد بحكمته ، ويدلّ على تدبيره ، كما يدلّ كتاب الكون على صدق الكتاب المتلو ، وما فيه من انذار وتبشير . . « والذين كفروا عما انذروا معرضون » . . وهذا هو العجب المستنكر في ظل تلك الاشارة الى الكتاب المنزل والكتاب المنظور ! قال

---

(١) التفسير الكبير (مفاتيح الغيب) ١٢/ ١٤٩
(٢) انظر المصدر السابق ١٢/ ١٤٩ وما بعدها . طبعة القاهرة ١٣٥٢ هـ/١٩٣٣ م .
(٣) الأحقاف : ١ ـ ٣
(٤) انظر في ظلال القرآن ٧/ ٤٠٣ وما بعدها

البيضاوي : « الاّ خلقا متلبسا بالحق ، وهو ما تقتضيه الحكمة والمعدلة ، وفيه دلالة على وجود الصانع الحكيم ، والبعث للمجازاة على ما قررناه مرارا »[1] .

وكتاب الكون يشهد بحقيقة الألوهية ، فنظامه وتناسقه مما يشهد بوحدانية الصانع المقدر المدبّر ، الذي يصنع عن علم ، ويبدع عن معرفة ، ومشاهد الكون معرض للانظار والقلوب ، وان مجرد التأمل في آياته ليقود الانسان الى الايمان بالله ، ويوحي له بوجوده .

وقد جعل الله حقيقة الايمان بوجوده غاية السمو الفكري ، والتيقظ النفسي ، فبين أن في خلق هذه الأجرام البعيدة الضخمة ، المتناثرة في أجواء السماء ، علامات لأولي الألباب ، أولئك الذين لا يقفون من مشاهد الكون موقفا سلبيا لا حياة فيه ولا روح ، وانما هم يستجيبون لداعيها الذي يسحر القلوب ، وينسجمون وايّاها في تأمل واع وديع ، فيستقبلون مؤثراتها استقبالا ايجابيا ، يوحي بمقدار ما في نفوسهم من حياة ، وما في عقولهم من ادراك .

ثم انهّم اذ يتأملون في خلق السموات والأرض ، لا يكتفون بفتح أبصارهم وبصائرهم للنظر والتدبر والاستدلال فحسب ، وانما يعبّرون عن احساسهم بالحقّ الذي لابسها ـ في خشوع العابدين ، وترتيل المرتلين ـ بألفاظ تنبىء عن رهافة الحس ، وتيقظ المشاعر . . . ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَابِ . الَّذِيْنَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ ، وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ : رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ ، فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[2].

والسياق يصور مشهد الحركة النفسية التي يحدثها التأمل في خلق السموات والأرض وما فيهما من آيات بينات أعجبت أولي الألباب ، حتى صاروا يرونها دليلا على الاله الخالق العظيم .

---

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل ص ٦٤٤ مصور عن طبعة استانبول ١٣٠٥ هـ .
(٢) آل عمران : ١٩٠ ـ ١٩١

ان تعبيرهم ـ الذي حكته الآية ـ : (ربنا ما خلقت هذا باطلا) ينبىء عن الحق الذي عرفوه في خلقها ، وعن الخالق الذي اطمأنوا الى وجوده من ورائها . ولعلهم أدركوا في هذا التأمل الخاشع ما في خلق هذه العناصر من التناسق الأخاذ ، والنظام البديع ، فصاروا يرددون دعاءهم الخاشع ذاك . والانسان هو المخلوق الوحيد الذي أوتي قدرة في تركيب أعضائه تمكنه من التفكر والتأمل في صفحة السماء . فكأن ذلك ايحاء له بمزاولة هذه العبادة الفكرية السامية ، التي عدمها الحيوان وبقية المخلوقات الحية[1] .

يقول الدكتور أحمد زكي : « فالذي صمم جسم الحيوان ، وركب هيكله كأنه لم يرد من هذا التصميم أن يتمكن الحيوان من النظر الى السماء . وذلك لأسباب عدة ، من أظهرها أنه ، مع عقله العاجز ، لا يستفيد من هذا النظر شيئا . وعلى غير هذا الطراز صمم المصمم جسم الانسان ، وركب هيكله . فالانسان عقل واعٍ ، كثير الوعي ، وهو قادر ، كثير القدرة . فهو يستفيد من النظر الى السماء أكبر استفادة . ويلقى في سبيل هذا النظر بعض المشقة ، ولكنها مشقة تهون في هذا السبيل الذي هو فيه »[2] .

وقد كثرت في القرآن الكريم الآيات التي تخاطب الانسان وتدعوه أن يوجه نظره الى خلق هذا الكون ـ سمائه وأرضه ـ وتدعوه الى التفكير في أسراره ليدعم ايمانه ويطرد فلول الشك في نفسه قال تعالى : ﴿ قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[3] . وقال سبحانه : ﴿ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَن يكون قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾[4] .

والمخاطبون بالقرآن أول مرة ، لم تكن لديهم المعرفة العلمية بما في السموات

---

(١) انظر في ظلال القرآن ١٨٨/٢ وما بعدها ؛ سيد قطب ، ط ٥ بيروت سنة ١٩٧٣ م

(٢) مع الله في السماء ص ٢٢

(٣) يونس : ١٠١

(٤) الأعراف : ١٨٥

والأرض الاّ القليل . ولكن الحقيقة التي ينبغي تأكيدها هي أن بين الفطرة البشرية وهذا الكون الذي تعيش فيه لغة خفية غنية ! وأن هذه الفطرة تسمع لهذا الكون ـ حين تتفتح وتستيقظ ـ وتسمع منه الكثير .

وهكذا حوّل القرآن الفكر الانساني من عبادة عناصر الكون التي لا تستأهل التأليه ، الى عبادة الله الحريّ بالعبادة وحده ، والنظر الى ما في السموات والأرض يمدّ عقل المؤمن وقلبه بزاد من المشاعر والتأملات ، وزاد من الاستجابات والتأثرات ، وقدر من سعة الشعور بالوجود ، ومن التعاطف مع هذا الوجود . . . فيزداد ايمانه بوجود الله ، وجلاله ، وتدبيره ، وسلطانه ، وحكمته ، وعلمه .

والمؤمنون هم الذين تتفتح قلوبهم لآيات الله الكونية المبثوثة في تضاعيف هذا الكون وثناياه ، المشهودة في تنسيقه وتنظيمه ، المنثورة في جوانبه حيثما امتدت الأبصار ، والمؤمنون هم الذين يدركونها لأنهم مفتوحو البصائر والمشاعر لتلقي الادراك . قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ . وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[1] .

وحيثما مدّ الانسان بصره وجد آيات اللّه تطالعه في هذا الكون الرحيب : السموات بأجرامها ، وأفلاكها . والأرض بما اودعها اللّه من خصائص في تركيبها ، ومن صلاح لنشوء الحياة فوقها . . . كلّها آيات تعلن عن نفسها فيستشعرها القلب المؤمن ، فتوقظ قلبه ، وتؤكد الصلة بينه وبين مشاهد الكون قال تعالى : ﴿ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[2] .

وقد أزرى القرآن بأولئك المعرضين عن آيات الله المبثوثة في تضاعيف الكون ، المعروضة للأبصار والبصائر . اذ يمرون عليها صباح مساء ، آناء الليل وأطراف

---

(١) الجاثية : ٣ـ ٥

(٢) العنكبوت : ٤٤

النهار . ولكنهم يمرون عليها معرضين ، ويتجاوزونها متجافين ، وكأنها غير ماثلة أمامهم . يقول تباركت أسماؤه :

﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَـوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا ، وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾[1] .

ان لحظة تأمل في مطلع الشمس ومغيبها ، لحظة تأمل في الظل الممدود ينقص بلطف أو يزيد ، لحظة تأمل في الخضم الزاخر ، والعين الفوارة ، والنبع الروي ، لحظة تأمل في النبتة النامية ، والبرعم الناعم ، والزهرة المتفتحة ، والحصيد الهشيم ، لحظة تأمل في الطائر السابح في الفضاء ، والسمك السابح في الماء ، والدود السارب والنمل الدائب ، وسائر الحشود والأمم من الحيوان والحشرات والهوام ، لحظة تأمل في صبح أو مساء ، في هدأة الليل أو في زحمة النهار . . لحظة واحدة يتسمع فيها القلب البشري الى ايقاعات هذا الوجود العجيب ، ان لحظة واحدة لكافية لارتعاش هذا القلب بقشعريرة الادراك الرهيب ، والتأثر المستجيب[2] .. « وكأي عدد شئته من الدلائل الدالة على وجود الصانع وحكمته وكمال قدرته وتوحيده في السموات والأرض يمرّون عليها ، على الآيات يشاهدونها وهم عنها معرضون لا يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها »[3] .

وقد وعد الله عباده ـ بني الانسان ـ ان يطلعهم على شيء من خفايا هذا الكون ، ومن خفايا أنفسهم على السواء ، وصدق الله العظيم : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ، أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٍ ؟ ﴾[4].

ومن اصدق من الله حديثا ؟ وهذا وعده يتحقق كل يوم ، فيكشف للانسان كلّ يوم عن جديد من خفايا هذا الكون ، ومن خفايا هذه النفس على السواء .

---

(١) يوسف : ١٠٥

(٢) انظر في ظلال القرآن ٥/٥٢ وما بعدها

(٣) تفسير البيضاوي ص ٣٢٥

(٤) فصّلت : ٥٣

لقد عرف الانسان أشياء كثيرة بعد نزول القرآن ، ولو أدرك كيف عرفها وشكر لكان له فيها خير كثير .

عرف أن الارض التي كان يظنها مركز الكون . . . ان هي الاّ ذرة صغيرة تابعة للشمس . وعرف أن الشمس كرة صغيرة من مثلها في الكون مئات الملايين . وعرف طبيعة أرضه وشمسه ، ان صحّ ما عرف .

وعرف كثيرا عن هذا الكوكب الأرضي ، عرف انه كرة أو كالكرة . وعرف أنه يدور حول نفسه وحول الشمس . وعرف كثيرا من المخبوء في جوف هذا الكوكب من الأقـوات ، والمنثور في جوه من الأقوات أيضا .

وعرف كثيرا من مشاهد هذه الخلائق من الأحياء التي تعمر الأرض من النبات والحيوان والطير والسمك والزواحف والحشرات . . . ولكنه مع ذلك لم يستطع أن يحصي عدد أنواعها وأجناسها ، وان ادرك ان كل خليقة منها أمة ! وأن كل فرد منها عجيبة قال تعالى :﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ ، مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ، ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾[1].

وعرف وحدة النواميس التي تربط هذا الكوكب الأرضي بالكون الكبير ، ومن الناس من اهتدى فارتقى من معرفة النواميس الى معرفة خالق النواميس ومنهم من انحرف عند ظاهر العلم لا يتعداه﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾[2].

ولم تكن فتوح العلم والمعرفة في أغوار النفس بأقل منها في جسم الانسان . فقد عرف الانسان شيئا عن الجسم البشري وخصائصه وأسرار تكوينه وتركيبه ووظائفه ، وغذائه وتمثيله وأسرار عمله وحركته ، مما يكشف عن بديع صنع الله .

وما يزال الانسان في طريق المعرفة ، وستجد الأجيال في كل عصر نصيبها مدّخراً

---

(١) الأنعام : ٣٨

(٢) الروم : ٧

من الآيات التي لم تكشف لنا بعد ، وتبقى معارض الكون ومشاهده المنظـورة ، معارض هائلة حافلة بكل عجيب وجديد الى أن يرث الله الأرض وما عليها .

ولو مضت الأجيال تتأمل آيات الله في الآفاق وفي الانفس ، وتشير مجرد اشارة الى ما فيها من عجائب ، والى ما تشير اليه هذه العجائب من آيات ، ما انتهى لها قول ولا اشارة[1] .

ويبقـى النص القرآنـي يوقـظ القلـب البشري للتأمـل والتدبـر ، واستجـلاء العجائب في هذه المشاهد الهائلة ، غير أنه لا يدرك هذه العجائب الا القلب العامر باليقين . ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِين . وَفِي أَنْفُسِكُمْ ، أَفَـلاَ تُبْصِرُونَ﴾[2] . . أما من علم ظاهرا من الحياة الدنيا فهو يمرّ بالمشهد الكوني مغمض العين والقلب ، لأن لمسة اليقين لم تبث الحياة فيه ، فيظل قلبه محجوبا لم يتفتح لحقيقة الوجود ، لأن حقيقة الوجود ، لا تتفتح الا بمفتاح الايمان ، ولا ترى الاّ بنور اليقين .

قال البيضاوي في تفسير آيتي الذاريات[3] : « (وَفِي ٱلْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ) ـ أي فيها دلائل من أنواع المعادن والحيوان أو وجوه دلالات من الدحـو والسـكون وارتفاع بعضها عن الماء واختلاف أجزائها في الكيفيات والخواص والمنافع تدل على وجود الصانع وعلمه وقدرته وارادته ووحدته وفرط رحمته . (وَفِي أَنْفُسِكُمْ) ـ أي وفي أنفسكم آيات ، اذ ما في العالم شيء الاّ وفي الانسان نظير يدلّ دلالته مع ما انفرد به من الهيئات النافعة والمناظر البهية والتركيبات العجيبة والتمكن من الأفعال الغريبـة واستنبـاط الصنائـع المختلفـة واسـتجماع الـكمالات المتنوعــة . (أَفَـلاَ تُبْصِرُونَ) ـ تنظرون نظر من يعتبر »[4] .

---

(١) انظر آية ٢٧ من سورة لقمان ﴿ وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ وآية ١٠٩ من سورة الكهف : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً ﴾ .

(٢) الذاريات : ٢٠ ـ ٢١

(٣) الذاريات : ٢٠ ـ ٢١

(٤) انوار التنزيل وأسرار التأويل ص ٦٩٠ ـ ٦٩١

وربما نلحظ في الاستفهام التوبيخي في قوله : (أَفَلاَ تُبْصِرُونَ) ازراء بأولئك الذين يصدون عن هذه الآيات المنتشرة في أرجاء الأرض ، وحثا لهم على النظر فيها ، وتأملها تأملا فكريا موحيا دالا .

ويحدثنا القرآن الكريم ان الاستدلال على الخالق بايجاد السماء والأرض قديم ، فلقد كان ذلك ديدن الرسل عليهم السلام ، اذ يحاجون أقوامهم ، فيلجأون الى الاستدلال بأعظم مشاهد الكون ليهدوهم الى الحق ، وليثبتوا لهم أن وراءها خالقا مدبرا قادرا ، وربا حكيما ، يتجلى ذلك في قوله تعالى :

﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ : أَفِي اللّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾(١) أي فلما واجهت الأمم رسلها بالشك فيما دعوهم اليه قالت الرسل : أفي الله شك والسموات والارض تنطقان للفطرة بأن الله أبدعهما ابداعا وانشأهما انشاء ؟ « فان شواهد الحدوث والخلق والتسخير ظاهر عليهما فلا بد لهما من صانع ، وهو الله لا إله الاّ هو خالق كل شيء»(٢) .

وقد نقل لنا القرآن محاجة موسى عليه السلام لفرعون ، اذ انكر فرعون أن يكون في العالم إله غيره . وكيف أنه عليه السلام استدل على الخالق الذي يدعو اليه ، وهو الله سبحانه ، بخلق السموات والأرض وما بينهما ، وذلك في قوله :﴿ قَالَ : رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾(٣) . فقد جمع هذا الجواب الاستدلالي أظهر ما يرى في الكون مجملا ، وهو : السموات والارض ، وما بينهما ، من عناصر الكون وظواهره ، دون بيان الجزئيات والتفصيلات . وهو جواب ضخم ضخامة الحديث الذي دار بينهما .

ويلون القرآن الكريم الاستدلال بالسموات والأرض وما فيهن ، لاثبات وجود الله سبحانه .فالله خلق السموات والأرض وما بينهما . وجعل الشمس ضياء والقمر

---

(١) ابراهيم : ١٠

(٢) تفسير ابن كثير ٢/ ٥٢٥ . طبعة الحلبي ، القاهرة ٤ مجلدات

(٣) الشعراء : ٢٤

نورا وقدره منازل . وقدّر اختلاف الليل والنهار . خلق ما في السموات والأرض من أمم ، ومن نبات ومن طير ومن حيوان . . وهي ظواهر تلفت الحس ، وتوقظ القلب حين يتدبرها تدبر الواعي المدرك ، قال تعالى :

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً ، وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِّيْنَ وَالْحِسَابَ ، مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ ، يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . إِنَّ فِي اخْتِلافِ اللَّيلِ وَالنَّهَارِ ، وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَومٍ يَتَّقُونَ ﴾(١) .

ولم يلجأ القرآن الكريم الى الاسلوب الجدلي في الاستدلال شأن المتكلمين والفلاسفة ، لأنه يعلم أن هذا الأسلوب لا يصل الى القلوب ولا يتجاوز منطقة الذهن الباردة التي لا تدفع الى الحركة ، ولا تؤدي الى بناء الحياة ، ولكنه اتجه الى مخاطبة الفطرة البشرية ازاء الآيات الكونية المبثوثة في الآفاق والأنفس ، لأنه يعلم ان بينها وبين مشاهد الكون لغة مفهومة ، وايحاءات مسموعة .

وعلى نحو من هذا الاستدلال الذي تلتقي فيه الفطرة بالحقائق الكونية المعروضة على الجميع ، محاجة ابراهيم عليه السلام للملك الطاغية ، فحين بينّ أبو الأنبياء أن ربّه يحيي ويميت ، ادّعى الطاغية أنه يفعل ذلك أيضا ، فما كان من النبي الكريم ، وقد رأى مغالطته ، إلاّ ان يفجأه بالحقيقة الكونية المتكررة ، التي تطالع الأنظار والمدارك كل يوم عند شروق الشمس من المشرق وغروبها من المغرب ، وهي ظاهرة لا تتخلف مرة ولا تتأخر . . . فبهت الذي كفر ، واسقط في يده(٢) .

قال تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيْمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ(*) ؟ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيْمُ : رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيْتُ . قَالَ : أَنَا أُحْيِي وَأُمِيْتُ . قَالَ إِبْرَاهِيمُ : فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي

(١) يونس : ٥ - ٦

(٢) انظر المنار - محمد رشيد رضا ٣/ ٤٦

(*) الضمير في (آتاه) يعود الى الطاغية . اي لأن اتاه الله الملك والمعنى آتاه الله الملك فبطر .

بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ . فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ . وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَومَ الظَّالِمِينْ ﴾[1] .

* * *

كذلك اتخذ القرآن من مشاهد الماء دلائل على اثبات وجود الخالق سبحانه . فهذا الماء النازل من السماء . . . ما هو وكيف نزل ؟ اننا نمر بهذه الخارقة سراعا لطول الألفة وطول التكرار . ان خلق الماء في ذاته خارقة . ومهما عرفنا أنه ينشأ من اتحاد ذرتي أيدروجين بذرة اكسوجين تحت ظروف معينة ، فان هذه المعرفة خليقة بأن توقظ قلوبنا الى رؤ ية يد الله التي صاغت هذا الكون بحيث يوجد الأيدروجين ويوجد الأكسوجين وتوجد الظروف التي تسمح باتحادهما ، ويتكوّن الماء من هذا الاتحاد . ومن ثم وجود الحياة في هذه الارض . ولولا الماء ما وجدت حياة . انها سلسلة من التدبير حتى نصل الى وجود الماء ووجود الحياة . والله من وراء هذا التدبير ، وكله مما صنعت يداه . . . ثم نزول هذا الماء بعد وجوده هو الآخر خارقة جديدة ، ناشئة من قيام الأرض والكون على هذا النظام الذي يسمح بتكوين الماء ونزوله وفق تدبير الله[2] .

قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ ، ثُمَّ يُخْرِجَ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ، ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَاماً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لأُولِي الأَلْبَابِ ﴾[3].

والماء ينزل من السماء فاذا به ينابيع وعيون وأنهار ، تنفجر هنا وهناك ، وتسيل في مسالكها متنقلة من مكان الى مكان . ثم اذا بهذا الماء يحيي الأرض بعد همودها وركودها ، واذا بها تهتز بالنبات الناضر الجميل المختلف الالوان والأشكال والأصناف ، ثم اذا بهذا الزرع ، يبلغ غايته المقدرة له في ناموس الوجود ، وفي نظام

---

(١) البقرة : ٢٥٨

(٢) انظر في ظلال القرآن ٧/ ١٣٥

(٣) الزمر : ٢١

الكون ، وفي مراحل الحياة فينضج للحصاد ، ثم يتم جفافه فيصفر ، فيغدو بعد ذلك حطاما كأن لم يكن زينة بالأمس . والقرآن يجعل من هذه المشاهد وتنقلها من حال الى حال ، ومن طور الى طور دليلا حسيا « على أنه لا بد من صانع حكيم ، وأن ذلك كائن عن تقدير وتدبير لا عن تعطيل واهمال »(١) .

وشبيه بهذا في بيان نعمة الماء المنزل من السماء ، واخراج النبات به ، وما يصحبه من تغير وتبدل في الطعم واللون والرائحة والصغر والكبر ، يوحي بوجود الصانع ، وينفي الصدفة والاتفاق ما ورد في سورة الأنعام ، قال تعالى :

﴿ وَهُوَ الَّذي أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً ،فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ ،فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضراً نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا ، وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ ، وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ ، والزَّيْتُونَ والرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ .انْظُرُوا إِلىَ ثَمَرِهِ إِذا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ . إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾(٢) .

فعلى الرغم من ان الماء واحد ، فقد تسبب في أشياء كثيرة ، وهي مسألة تلفت النظر وتثير التساؤ ل ، وتوحي ان وراءها قدرة حكيمة ، وقوة رحيمة .

وكذلك فان في بداية الثمر ونهايته مشهدا حريا بالتأمل والاستبصار ، فهذا التباين الواضح في البداية الضعيفة الخاملة ، والنهاية القوية الزاهرة ، في حياة الثمر ، انما هو دليل حي ، وبرهان ساطع للمؤمنين الذين يتجاوزون الحواس الى الوجدانات ، ويتخطون العيون الى العقول فيتأملون بالفكر قبل أن يتأملوا بالبصر ، « اذا أخرج ثمره كيف يخرجه ضئيلا ضعيفا لا يكاد ينتفع به . وانظروا الى حال ينعه ونضجه كيف يعود شيئا جامعا لمنافع وملاذ نظر واعتبار واستبصار واستدلال على قدرة مقدرة ومدبّرة وناقلة من حال الى حال »(٣) .

---

(١) تفسير الزمخشري ٣/ ٣٩٤ طبعة الحلبي بالقاهرة ، ١٩٦٦ م
(٢) الأنعام : ٩٩
(٣) تفسير الزمخشري ٢/ ٤٠

وقد عدّ الرازي اختلاف الأثمار بداية ونهاية ، هو موضع الاستدلال في الآية الكريمة ، على الخالق القادر الحكيم ، وفصّل القول في ذلك بروح الأديب صاحب الفكر فقال : قوله : (أُنْظُرُوا إلى ثَمَرِهِ إذا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ) أمر بالنظر في حالها في حال الثمر في أول حدوثها الى تمامها وكمالها ، وهذا هو موضع الاستدلال والحجة التي هي تمام المقصود من الآية[1] . وقوله تعالى :

﴿ وَهُوَ الَّذِي انْشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ ، وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ ، وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَانَ مُتَشَابِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ . كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إذا أَثْمَرَ ، وآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ، ولاَ تُسرِفُوا ، إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسرِفِينَ ﴾[2] فالذي حصل به الامتياز بين الآيتين أن هناك أمرا بالاستدلال بها على الصانع الحكيم ، وههنا اذن في الانتفاع بها وذلك تنبيه على أن الأمر بالاستدلال بها على الصانع مقدم على الاذن في الانتفاع بها لأن الحاصل من الاستدلال بها سعادة روحانية أبدية . والحاصل من الانتفاع بهذه سعادة جسمانية سريعة الانقضاء ، والأول أولى بالتقديم ، فلهذا السبب قدّم الله تعالى الأمر بالاستدلال بها على الاذن بالانتفاع بها . . . »[3] .

ويربط القرآن الكريم كل مشاهد الكون وكل خلجات النفس الى عقيدة التوحيد ، حين نفتح كتاب الكون على مصراعيه فتنطق سطوره الهائلة بنعم الله التي لا تحصى ، ليستدل بها على وجود الله :

﴿ الله الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ والْأَرْضَ ، وَأَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ مَاءً ، فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ ، وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ، وسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ . وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينِ ، وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ والنَّهَارَ . وآتاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ، وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا . إِنَّ الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾[4].

---

(١) تفسير الرازي ١٣/ ١١١

(٢) الأنعام : ١٤١

(٣) تفسير الرازي ١٣/ ٢١٠

(٤) ابراهيم : ٣٢ ـ ٣٤

نعـم الله على مدّ البصر : السمـوات والأرض ، الشـمس والقمـر . والليل والنهار . الماء النازل من السماء ، والثمار النابتـة من الأرض . البحـر تجـري فيه الفلك ، والانهار تجـري بالأرزاق . . كلهـا مشاهـد معروضـة للأنظـار ، ولـكنّ الجاحدين لا ينظرون ، ولا يتدبرون ، ولا يشكرون : ان الانسان لظلوم كفّار . يبدّل نعمة الله كفرا ، ويجعل له أندادا ، وهو الخالق الرازق المسخر الكون كله لهذا الانسان[1] .

وكما استدل القرآن على الخالق القادر الحكيم بأحوال الجماد والنبات ، استدل ايضا على ذلك بأحوال الحيوان والطير من طريق بيان خلقها وما اشتمل عليه من دقة ونظام لا يمكن تحققها عفويا وعلى سبيل المصادفة والاحتمال مطلقا .

قال تعالى :

ـ ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ، مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْء ، ثُمَّ إِلى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾[2] .

ـ ﴿ وَاللّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ ، فَمِنْهُمْ مَّنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ ، وَمِنْهُم مَّنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ ، وَمِنْهُم مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ ، يَخْلُقُ اللّهُ مَا يَشَاءُ ، إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[3] .

﴿ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوابِ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ ، إِنَّمَا يَخْشَى اللّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ، إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾[4] .

ـ ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴾[5] .

---

(١) انظر في ظلال القرآن ٥/ ١٦٦

(٢) الأنعام : ٣٨

(٣) النور : ٤٥

(٤) فاطر : ٢٨ . وقوله (كذلك) أي كاختلاف الثمرات والجبال المذكور في الآية ٢٧ من نفس السورة .

(٥) الملك : ١٩ .

ففي مشاهد الحيوان من الدواب والطير عجائب تدل على ما وراءها من قدرة الله الباهرة في الخلق والتركيب ، وأن كل شيء في الوجود ينقاد اليه ، وكأن لكل شيء زماما بيده ، الانسان في الأرض والملائكة والأفلاك في السماء والطير في الهواء ، يقول الله تعالى : « أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ »[1] فكل من في السموات من الملائكة يسبح له طوعا وكل من في الارض يسبح له اختيارا ، وتسبح له الطير تسخيرا وانقيادا دالة على حكمته ، اذ هي منقادة له طائعة بخلقها ، ويصرّفها كما يشاء ، ولسان حالها ناطق بتنزيه الله ، شاهد بكمال قدرته ، وأنه ليس كمثله شيء . وما من طائر بل ما من جناح بعوضة الاّ ويدلّ على خفيات القدرة الالهية المبدعة .

ولنكتف بالوقوف امام أحوال مخلوق صغير من مخلوقات الله ، لنرى كيف يمكن الاستدلال به عليه . . . انه النحل هذا المخلوق الصغير بجسمه ، الكبير بهمته ونظام حياته . . إن أحواله كلها لمما تثير التأمل ، وتستدعي التفكر ، فمن ذا الذي جبل في هذه المخلوقات الصغيرة النشيطة الدائبة الحركة ، غريزة التجمع المفيد ؟ من ذا الذي ألهمها هذا النظام الدقيق الذي تعيش به جماعاتها ، وتنتظم فيه أسرابها ؟ حتى غدت تتخذ من الجبال اكنانا لها ، وتضع فيها عسلها الذي فيه شفاء للناس . انه الله الذي الهمها هذه القدرات ، وأودع فيها هذه الطاقات ، قال سبحانه : ﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ . ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[2] .

« والايحاء الى النحل الهامها ، والقذف في قلوبها ، وتعليمها على وجه هو أعلم به لا سبيل لأحد الوقوف عليه . . . وأحوالها دلائل بينة شاهدة على أن الله أودعها علما وفطنة كما أولى أولي الألباب عقولهم »[3] .

***

---

(١) النور : ٤١
(٢) النحل : ٦٨ - ٦٩
(٣) تفسير الزمخشري ٢/٤١٧

مما مرّ يتبين لنا ان القرآن الكريم يستدل بكل مشاهد الكون على وجود الخالق القدير الحكيم ، حين يصير هذا بكل ما فيه ومن فيه معرضا لآيات الّله . . تبدع فيه يد القدرة ، وتتجلى آثارها في كل مشهد فيه ومنظر. وقد لون هذا الاستدلال مجملا تارة ، ومفصلا أخرى ، ليجعل ذلك دليلا على وجود الله سبحانه .

***

-٢-

الدلالة على وحدانية الله وتنزيهه

توحيد الله تعالى وتنزيهه عن الشريك والند ، أهم ما يميز الاسلام من غيره من الأديان . وقد حرص القرآن على تجنيب المؤمنين الشرك ، وبيّن أن الله يغفر الذنوب الا أن يشرك به ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ، وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً ﴾(١) . وقد وجه القرآن الآيات الكونية للاستدلال على وحدانية الله وتنزيهه :

أ ـ وحدانية الله :

جعل القرآن الكريم الكون ومشاهده العظيمة برهانه وحجته ، وجعلها مجال النظر والتدبير للحقّ الذي جاء به . وقد استدل القرآن على وحدانية الله سبحانه وتعالى ، بخلق السموات والأرض ، وملكيته لهما ، ولما فيهما من عناصر الكون قال تعالى : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ، وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ : اللَّهُ . فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ؟(*) . اللَّهُ يَبْسِطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ، إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . وَلَئِنْ سَأَلْتَهُم مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ : اللَّهُ . قُلِ : الْحَمْدُ لِلَّهِ ، بَلْ أَكْثَرُهُم لاَ يَعْقِلُونَ ﴾(٢) .

فلقد خاطب القرآن الكريم المشركين بمسلماتهم في أمور الكون . فهم يقرون بخلق الله للسموات والأرض وتسخيره للشمس والقمر وانزاله الماء من السماء

---

(١) النساء : ٤٨

(*) فأنى يؤفكون ؟ : فكيف يصرفون عن توحيده

(٢) العنكبوت : ٦١ ـ ٦٣

واحيائه الارض بعد موتها . وما يتضمنه هذا من بسط الرزق لهم أو تضييقه عليهم . . ثم هم بعد ذلك كله يشركون بالله ، فيعبدون الأصنام ، أو يعبدون الجن ، أو يعبدون الملائكة ، ويجعلونهم شركاء لله في العبادة ، ولم يجعلوهم شركاء له في الخلق . . وهذا تناقض عجيب تناقض يعجب الله منه في هذه الآيات : (فأنى يؤفكون) أي « فكيف يصرفون عن توحيد الله ، وأن لا يشركوا به شيئا ، مع اقرارهم بأنه خالق السموات والارض »[1] .

ولقد كرر القرآن الكريم هذا السؤال عن خالق السموات والأرض في آيات أخر . ثم جعل من واقع ما يقررونه من حقيقة الله في فطرتهم ، وبأنه خالق السموات والارض ، أساسا لالزامهم في ابطال عبادتهم ودحض شركهم ، وتوهين آلهتهم قال تعالى :

- ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُم: مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ؟ لَيَقُولُنَّ: اللّهُ . قُلِ : الْحَمْدُ لِلّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ، لِلّهَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ، إِن اللّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيْدُ ﴾[2] .

- ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُم : مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ؟ لَيَقُولُنَّ : اللّهُ . قُلْ : أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ إِنْ أَرَادَنِي اللّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ ؟ أَوْ أَرادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ؟ قُلْ : حَسْبِيَ اللّهُ عليهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾[3] .

- ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُم مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ : خَلَقَهُنَّ الْعَزِيْزُ الْعَلِيْمُ ﴾[4].

وقد ضم القرآن الى برهان خلق السموات والارض ، خلق الأنفس من

---

(١) تفسير الزمخشري ٣/ ٢١١
(٢) لقمان : ٢٥
(٣) الزمر : ٣٨
(٤) الزخرف : ٩

النطفة ، قال تعالى : ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ . خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ نُّطْفَةٍ فإِذَا هُوَ خَصِيْمٌ مُّبِيْنٌ ﴾[1] . فجمع في هذا الاستدلال بين ما هو ضخم في الحس ، وما هو ضئيل فيه . فالحق في خلق السموات والارض عنصر أصيل ، وبالحق يتم تصريفهما وتصريف من فيهما وما فيهما . بلا عبث ولا جزاف . انما كل شيء قائم على الحق ومتلبس به ومغض له وصائر اليه في النهاية . . . (تعالى عما يشركون) تعالى عن شركهم ، وتعالى عما يشركون به من خلق الله الذي خلق السموات والارض ، وخلق من فيهما وما فيهما ، فليس أحد وليس شيء شريكا له فهو الخالق الواحد بلا شريك . وكذلك ﴿ خلق الانسان من نطفة فاذا هو خصيم مبين ﴾ فالانسان بين كونه نطفة مهينة الى كونه مفصحا عن آرائه مجادلا عنها ، نقلة بعيدة ، ومفارقة كاملة[2] . ولكن النص يختصر المسافة بين المبدأ والمصير . وهو ايجاز مقصود في التصوير .

وخلق السماء والارض وما بينهما لم يكن باطلا ، ولم يقم على الباطل ، انما كان حقا وقام على الحق كما بينا سابقا . والقرآن يحثّ الرسولﷺ أن يبين للمشركين الحقيقة سافرة ، وهو انه لا يتخذ غير الله وليا ولا الها ، وقد أبدع السموات والأرض وبدأهما وأوجدهما على غير مثال سابق ذلك أن مبدىء هذه الاجرام الضخمة ، وموجدها ، هو الجدير بالعبادة لا ما يعبدونه من أوثان وأصنام لا حول لها ولا قوة ، يقول تعالى :

﴿ قُلْ : أَغَيْرَ اللّهِ أَتَّخِذُ وَلِياً فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ ولاَ يُطْعَمُ ؟ قَلْ : إِنّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ، ولاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينْ ﴾[3] .

وقوله (قُلْ أَغَيْرَ اللّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ) كقوله (قُلْ أَفَغَيْرَ اللّهِ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ) والمعنى : لا اتخذ وليا الا الله وحده لا شريك له

(١) النحل : ٣ ـ ٤
(٢) انظر تفسير البيضاوي ٣٥١
(٣) الأنعام : ١٤

فاطر السموات والارض أي خالقهما ومبدعهما على غير مثال سبق . . وأكد هذا بقوله (وَهُوَ يُطْعِمُ ولاَ يُطْعَمُ)[1] .

وينقل القرآن لنا صورة أخرى من صور الاستدلال على وحدانية الله تعالى :

﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ ؟ قُلِ : اللّٰهُ . قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاء لاَ يَمْلِكُونَ لِانْفُسِهِم نَفْعاً ولاَ ضَراً . قُلْ هَلْ يستوي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَم هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ والنُّورُ أَم جَعَلُوا لِلّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِم . قَلِ اللّٰهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾[2] .

« يقرر تعالى أنه لا اله الا هو لأنهم معترفون بأنه هو الذي خلق السموات والأرض وهو ربها ومدبرها ، وهم مع هذا قد اتخذوا من دونه أولياء يعبدونهم ، وأولئك الآلهة لا تملك لنفسها ولا لعابديها بطريق الأولى نفعا ولا ضرا ، أي لا تحصل لهم منفعة ولا تدفع عنهم مضرة ، فهل يَسْتَوِي من عبد هذه الآلهة مع الله ومن عبد الله وحده لا شريك له فهو على نور من ربه ؟ ولهذا قال (قل هل يستوي الاعمى والبصير أم هل تستوي الظلمات والنور أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم) أي أجعل هؤلاء المشركون مع الله آلهة تناظر الرب وتماثله في الخلق ، فخلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم ، فلا يدرون أنها مخلوقة من مخلوق غيره ، أي ليس الأمر كذلك ، فانه لا يشابهه شيء ولا يماثله ، ولا ندّ له ولا عدل ، ولا وزير له ولا ولد ولا صاحبة »[3] .

والقرآن يروي لنا أن الاستدلال بخلق السموات والارض ، على وحدانية الخالق قديم ، فقد ورد على لسان الفتية أهل الكهف والرقيم ، اذ آووا الى كهفهم فارّين بدينهم من المشركين ﴿ فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لَنْ نَّدْعُواْ مِنْ دُونِهِ إِلَهَاً ، لَّقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطَاً ﴾[4] .

***

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ١٢٥

(٢) الرعد : ١٦

(٣) تفسير ابن كثير ٢/ ٥٠٧

(٤) الكهف : ١٤

وكذلك استدل القرآن الكريم على الوحدانية ، بملكية الله للسموات والارض ولما بينهما من عناصر الكون . فلله ما في السموات والارض ملكا وخلقا وتصريفا وعلما فهو العليم بكل شيء . قال تعالى :

﴿ اللّهُ لاَ إِلَهَ إِلاّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ ولاَ نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَنْ ذَا الّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِم وَمَا خَلْفَهُمْ ولاَ يُحِيطُونَ بِشَيء مِّنْ عِلْمِهِ إِلاّ بِمَا شَاء . وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ولا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾[1] .

ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ لَهُ مَا فِيَ السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ . تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوقِهِنَّ ، وَالْمَلاَئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ، وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الأَرْضِ أَلاَ إِنَّ اللّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . والَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ ، وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴾[2] .

فالله هو الذي يستحق أن يعبد دون سواه ، وهو المالك للسموات والارض لا يشاركه في ذلك أحد . « انه مالك جميع ذلك بغير شريك ولا نديد ، وخالقه جميعه دون كل آلهة ومعبود ، وانما يعني بذلك أنه لا ينبغي العبادة لشيء سواه ، لأن المملوك إنما هو طوع يد مالكه ، وليس له خدمة غيره الا بأمره ، يقول : فجميع ما في السموات والارض ملكي وخلقي ، فلا ينبغي أن يعبد أحد من خلقي غيري . وأنا مالكه . لأنه لا ينبغي للعبد أن يعبد غير مالكه ، ولا يطيع سوى مولاه . وأما قوله (من ذا الذي يشفع) لمماليكه ان أراد عقوبتهم ، الا أن يأذن له بالشفاعة لهم ، وانما قال ذلك تعالى ذكره ، لأنّ المشركين قالوا : ما نعبد أوثاننا هذه الا ليقربونا الى الله زلفى فقال تعالى ذكره لهم : لي ما في السموات والارض ملكا فلا تنبغي العبادة

---

(١) البقرة : ٢٥٥

(٢) الشورى : ٤ ـ ٦

لغيري ، فلا تعبدوا الأوثان التي تزعمون أنها تقربكم مني زلفى ، فانها لا تنفعكم عندي ولا تغني عنكم شيئا »[1] .

ولما كانت الآلهة التي عبدها المشركون عاجزة أن تجلب نفعا أو تدفع ضرا ، وهي لا تملك مقدار ذرة في السموات والارض ،حثّ القرآن الرسول ﷺ أن يستنكر عبادة المشركين آلهتهم ، قال سبحانه :

﴿قُلِ : ادْعُوا الَّذِيْنَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللّهِ. لاَ يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلاَ فِي الْأَرْضِ ، وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾[2] ، والمعنى « قل يا محمد لهؤلاء المشركين الضالين سواء السبيل : ادعوا الذين عبدتموهم من دون الله من الاصنام والملائكة ، وسميتموهم آلهة ، وزعمتم أنهم يستحقون أن يكونوا شركاء لله الواحد القهار ، ادعوهم في السراء والضراء كما تدعون الله ، والتجئوا اليهم في الشدائد كما تلتجئون الى الله ، وانتظروا استجابتهم لدعائكم كما تنتظرون من الله الاجابة والرحمة . . . ولقد أجاب الحق تبارك وتعالى عنهم باجابة هي المتعينة وحدها ، ولا يجيب منصف الا بها فقال ما معناه : انهم لا يملكون شيئا أبدا ، ولا يملكون وزن ذرة من خير او شر في جميع جهات السموات والارض ، وما لهم في السموات كلها وفي الارض جميعها من شركة في الخلق أو في الملك (مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ولاَ خَلْقَ أَنْفُسِهِم وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً)[3] . . وليس لله منهم من ظهير ولا معين ، وكيف يكون غير ذلك ؟ فبطل بهذا اتخاذهم الاصنام آلهة من دون الله حيث لا تملك نفعا ولا ضرا بل ان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب[4] .

وقد رد القرآن الكريم على فكرة الثنائية التي دان بها المجوس ، لأن الشركة في

---

(١) تفسير الطبري ٥/ ٣٩٥ ، جامع البيان تحقيق محمود شاكر ، دار المعارف بمصر ، ١٦ مجلد

(٢) سبأ : ٢٢

(٣) الكهف : ٥١

(٤) التفسير الواضح ٢٢/٤٧ في الاصل (بصلهم) وسياق الكلام يقتضي ما اثبتناه ، تأليف محمد محمود حجازي ، مطبعة الاستقلال بالقاهرة ، ١٩٧٢ م .

العبادة تنافي الوحدانية ، وليس المعبود بحق الا الها واحدا . واستدل على ذلك بملكية الله للسموات والارض ، وهيمنته عليها ، وتسييرهما في نظام بديع ، ونسق عجيب لا اثر فيه للصدفة .

يلفت القرآن النظر الى أنه لو كان فيهما الهان لفسدتا . قال تعالى : ﴿ وَقَالَ اللَّهُ لاَ تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُون . وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً(*) أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ ﴾[1] .

فلله وحده ما في السموات والأرض خلقا ، وملكا وعبيدا . فحقه أن يعبد ويحمد[2] . (وَقَالَ اللَّهُ لاَ تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ) ذكر العدد مع ان المعدود يدل عليه دلالة على أن مساق النهي اليه ؛ أو ايماء بأن الاثنينية تنافي الألوهية كما ذكر الواحد في قوله (إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ) للدلالة على أن المقصود اثبات الوحدانية دون الالوهية أو للتنبيه على أن الوحدة من لوازم الألوهية »[3] .

وراح القرآن يذكر الناس بنعمة الله عليهم ، وهو وحده الخالق وهو وحده الرازق ، الذي لا اله الا هو ، ويعجب كيف يصرفون عن هذا الحق الواضح المبين :[4] .

﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ، هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾[5] فلقد نبه الله عباده وأرشدهم الى الاستدلال على توحيده ، في اقرار العبادة له ، كما أنه المستقل بالخلق والرزق ، فليفرد كذلك بالعبادة ولا يشرك به غيره من الاصنام والانداد والاوثان[6] .

***

(*) له الدين واصبا : أي له الدين خالصا واجبا (ابن كثير) . وقال في (الظلال) واصبا واصلا منذ ما وجد الدين فلا دين الا دينه فهل يستحق ان يعبد الناس غيره . . احدا ؟

(١) النحل : ٥١ ـ ٥٢

(٢) انظر المنتخب في تفسير القرآن الكريم ص ٣٩٣ ، المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ، ط ٥

(٣) تفسير البيضاوي ص ٣٥٨

(٤) انظر في هذا البحث ص ٢٥ ـ ٢٦

(٥) فاطر : ٣

(٦) انظر تفسير ابن كثير ٣/٥٤٧

ولا يكتفي القرآن الكريم للاستدلال على وحدانية الله سبحانه ، بخلق السموات والارض ، وملكيته لهما ، بل يقف الناس أمام مشاهدات في صفحة الكون ، وفي أطواء النفس ، لا يملكون انكارها ، ولا يملكون تعليلها بغير التسليم بوجود الخالق الواحد المدبر القدير . قال تعالى :

﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ، وَأَنْزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ ماءً ، فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ؟ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ ؟ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ(*) . أَمَّنْ جَعَلَ الأَرْضَ قَرَاراً ، وَجَعَلَ خِلاَلَهَا أَنْهاراً، وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ ، وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً ؟ أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ ؟ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ . أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ، وَيَكْشِفُ السُّوءَ ، وَيَجْعَلُكُم خُلَفَاءَ الأَرْضِ ؟ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ ؟ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ .أَمَّنْ يَهدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبرِّ وَالْبَحْرِ ، وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ؟ أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ ؟ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ . أَمَّنْ يَبْدأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ، وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ؟ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ ؟ قُلْ : هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِيْنَ . قُلْ لاَ يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ ، وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ . بَلِ ادَّارَكَ(*) عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ ، بَلْ ، هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا ، بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ ﴾(١) .

وهكذا تتجلى قدرة الله ووحدانيته ، عندما يسألهم هذه الاسئلة المتلاحقة : من خلق السموات والارض ؟ من أنزل من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ؟ من جعل الأرض قرارا ، وجعل خلالها أنهارا ، وجعل لها رواسي ، وجعل بين البحرين حاجزا ؟ من يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء ؟ من يجعلكم خلفاء الارض ؟ من يهديكم في ظلمات البر والبحر ؟ من يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته ؟ من يبدأ الخلق ثم يعيده ؟ من يرزقكم من السماء والأرض ؟ وفي كل مرة يقرعهم : أإله مع الله ؟ وهم لا يملكون أن يدعوا هذه الدعوى . لا يملكون أن يقولوا : انّ الها مع الله

(*) يعدلون : ينحرفون عن الحقّ الى الباطل .
(*) ادّارك علمهم في الآخرة : تكامل واستحكم علمهم بأحوالها وهو تهكم بهم لفرط جهلهم بها .
(١) النمل : ٦٠ ـ ٦٦

يفعل من هذا كله شيئا ، وهم مع هذا يعبدون أربابا من دون الله ! وعقب هذه الادلة المتباينة التي تملأ الآفاق والأنفس . . . يعرض تكذيبهم بالآخرة ، وتخبطهم في أمرها . . وقوله (قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُم صَادِقِينْ) أي « في اشراككم فان كمال القدرة من لوازم الألوهية . . وان القيامة كائنة لا محالة لا يعلمونه كما ينبغي بل هم في شك منها كمن تحير في أمر لا يجد عليه دليلا بل هم منها عمون لا يدركون دلائلها لاختلال بصيرتهم »[1] .

وقد حركت هذه المشاهد الضمائر والاحساسات ؛ عندما حملت الانسان الى تجاوز هذه النعم والآلاء المتناثرة الى ما هو أسمى منها ، ألا وهو توحيد الله وعبادته دون شريك .

* * *

ب ـ تنزيه الله :

واجه القرآن الكريم الوثنيات وجعل يسخف تصوراتها الفاسدة للألوهية ، وفي مستهل هذا الفصل أشرنا الى حالة البشرية وتراكم فساد معتقداتها عند نزول القرآن فقد زعمت اليهود أن عزيزا ابن الله ، وزعمت النصارى أن المسيح ابن الله ، وزعم مشركو العرب أن الملائكة بنات الله ـ مع كراهيتهم للبنات ـ ثم عبدوا الملائكة ـ أو الأصنام ـ معتقدين أن لها عند الله شفاعة لا ترد ، وأنهم يتقربون بها اليه سبحانه[2] .

ولم يسكت القرآن عن هذه الافتراءات والتقولات ، فراح يفندها ، ويرد عليها ، مستدلا بما في الكون من حقائق تنفي هذه الفرية وتمحقها ، اتماما لمنافحته ، عن الوحدانية التي هي حجر الأساس في الفكر الاسلامي .

---

(١) تفسير البيضاوي ص ٥٠٧ ، وانظر تفسير في ظلال القرآن ٦/ ٢٨٩ وما بعدها . والضمير في (يعلمونه) يعود على الغيب .

(٢) انظر في هذا البحث ص ٢ ـ ٤

وقد تكرر الحديث عن هذه المسألة في أكثر من سورة وآيه ،فمن ذلك قوله تعالى :

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ ـ وَخَلَقَهُمْ ـ وَخَرَقُوا(*) لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ . سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ . بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ ، وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ، وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ، لاَ إِلَهَ إِلا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ، فَاعْبُدُوهُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾(١) .

فالقرآن يستدل على تنزيه الكائن الأعلى عن مجانسة الأدميين في اتخاذ الصاحبة او الزوجة واتخاذ الأولاد بابداعه السموات والأرض . لأن الذي يبدع هذا الوجود من العدم لا تكون به حاجة الى الولد . والولد انما هو امتداد الفانين ، وعون الضعفاء ، ولذة من لا يبدعون ! . والله سبحانه وتعالى قوي لا يحتاج الى سند ، حيّ حياة أبدية سرمدية لا تنقطع . . فما الداعي لطلب الولد ؟ وما الحاجة اليه ؟ ثم كيف يكون له سبحانه ولد ؟ ولم تكن له صاحبة ـ أي زوج ـ ؟ ولو كانت له صاحبة لكانت الهة مثله . . اذ أن التوالد لا يكون الا بين المتماثلين . . والله ـ سبحانه ـ منزه عن المثل والشبيه . وقوله تعالى (وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم) تقرير لهذا الحكم وتوكيد له . . اذ ان الخالق لكل شيء ، لا يناسبه ولا يماثله شيء من مخلوقاته ، واذن فلا يصحّ أن ينفرد بالخلق سواه(٢) .

وكما استدل القرآن الكريم على نفي اتخاذ الولد والصاحبة ، بتفرده ابداع السموات والأرض ، فانه استدل على ذلك أيضا بملكيته لهما ، وهيمنته عليهما ، وتدبيره اياهما . ويتجلى ذلك في قوله :

﴿ قَالُوا : اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً ، سُبْحَانَهُ ، هُوَ الْغَنِيُّ ، لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي

(*) خرقوا : اختلفوا . خرقوا له بنين وبنات : عند اليهود : عزيز وعند النصارى : المسيح . وعند المشركين : الملائكة وزعموا أنهم اناث .

(١) الأنعام : ١٠٠ ـ ١٠٢ .

(٢) انظر التفسير القرآني للقرآن الكريم ٧/٢٥٣

ٱلأَرْضِ ، إِنْ عِنْدَكُم مِّنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا[*] ، أَتقُولُونَ عَلَىَ اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ . قُلْ : إِن الَّذِيْنَ يَفْتَرُونَ عَلَىَ اللَّهِ الْكَذِبَ لاَ يفلِحُونَ . مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ، ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُم ، ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيْدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾[١] .

والحجة التي تسوقها هذه الآيات في الرد على افتراءات المشركين باتخاذ الله ولدا وتنزيهه تبدأ بالدنيا وتنتهي بالعذاب في الآخرة على طريقة القرآن ، فتقرر أن الله غني عن اتخاذ الولد لأن له ما في السموات والأرض ، وليس في حاجة الى ولد يساعده ، أو ولي ينصره ، أو شريك يسنده ، وتؤكد أن ما يقوله المشركون غير مستند الى علم أو برهان ، وانما هو كذب وافتراء على الله ، وتنذرهم بأن مرجعهم الى الله بعد متاع الحياة الدنيا القصير فيذيقهم جزاء افترائهم وكذبهم عذابه الشديد[٢] .

وقد حرص القرآن الكريم على ربط عقيدة التوحيد والتنزيه بالكون والحياة ، لأن سنن الله الكونية لا تتخلف . فمن اتبع هذه السنن أفلح وفاز ، ومن ضل عنها ضل وخسر ، والناس في هذا كلهم سواء ، وكلهم مرجعهم الى الله ، وليس هناك شفعاء ولا شركاء ، وكلهم آتيه يوم القيامة فردا ، ولكل نفس ما عملت ، ولا يظلم ربك أحدا .

وقد جمع القرآن بين الاستدلالين ـ ابداع الله للسموات والأرض ، وملكيته لهما ـ في سياق واحد فقال سبحانه :

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدَاً سُبْحَانَهُ بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَٱلأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ . بَدِيْعُ السَّمَوَاتِ وَٱلأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾[٣] .

(*) ان عندكم سلطان بهذا : ليس عندكم برهان ولا حجة على هذا .

(١) يونس : ٦٨ : ٧٠

(٢) انظر التفسير القرآني للقرآن الكريم ١١/ ١٠٤٤ وما بعدها . تأليف عبد الكريم الخطيب ، طبعة دار الفكر بالقاهرة ١٩٦٧ م .

(٣) البقرة : ١١٦ ـ ١١٧

ففي الآيتين الكريمتين : حكاية بأسلوب تنديدي للذين يقولون ان الله اتخذ ولدا ، تنزيها له عن ذلك . فهو الذي أبدع السموات والأرض وخلقهما من العدم على هذا النظام البديع وهو الذي يخضع له كل ما فيهما . وهو الذي يقول للشيء اذا أراده كن فيكون . فلا يكون الا منزها ومستغنيا عن الولد والشريك والند[1] .

وفي مقام آخر عرض القرآن حشدا من مشاهد الكون الدالة على سخف ذلك التصور وتهافته :

﴿ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَداً لا صْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ . خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى أَلاَ هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴾[2] .

ففي فرض جدلي راح القرآن يدحض فرية اتخاذ الله ولدا : فالله لو أراد أن يتخذ ولدا ـ كما يزعم هؤلاء الضالون ـ لاختاره هو سبحانه ، ولخلقه على ما يشاء ، لا أن يختاره له هؤلاء الضالون[3] ، ولكنه ـ سبحانه ـ نزه نفسه عن اتخاذ الولد . فليس لأحد أن ينسب اليه ولدا ، وهذه ارادته ، وهذه مشيئته ، وهذا تقديره ، وهذا تنزيهه لذاته عن الشريك والولد . . ثم هذه اللفتة الى ملكوت الله في السموات والأرض ، والى ظاهرة الليل والنهار ، والى تسخيره الشمس والقمر . . كلها مشاهد ناطقة للفطرة دالة على كمال الوحدانية والتنزيه[4] .

وقد تعرض القرآن الكريم لما كانت الوثنية الجاهلية تعتقد من نحو زعمها أن الملائكة بنات الله ، فراح يدحض هذه الفرية مستدلا على ذلك بخلق السموات

---

(١) انظر التفسير الواضح ١/ ٦٥
(٢) الزمر : ٤ ـ ٥
(٣) انظر في هذا البحث ص ٤١
(٤) انظر في ظلال القرآن ٧/ ١٢١ وما بعدها .

والأرض ، وتسخيرها وما فيها للبشر ليذكروا نعمة ربهم عليهم ، لا ليجعلوا له شركاء ، قال تعالى :

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيْزُ الْعَلِيْمُ . الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْداً وَجَعَلَ لَكُمْ فِيْهَا سُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ . والَّذي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا(*) بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ . وَالَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ(**) كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ . لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ، ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِيْنَ(****): وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ . وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءاً إِنَّ الإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِيْنٌ . أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ(***) بِالْبَنِيْنَ(١).

ان تدبر هذا الكون وما فيه من نواميس متناسقة كفيل بهداية القلب الى خالق هذا الكون ، ومودعه ذلك التنظيم الدقيق العجيب : فخلق السموات والارض ، وجعل الأرض مهدا وراحة وطمأنينة ، وانزال الماء من السماء بقدر موزون ، واخراج النبات من الارض الهامدة به ، وخلق الأزواج كلها مختلفة الاصناف والاشكال ، وتسخير الفلك والانعام وسائط لنقل الانسان من مكان الى مكان . . دلالات على عظمة الله وتنزيهه عما لا يليق به من نعوت ، مذكرات بالانقلاب والرجوع وقوله « (وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءاً) متصل بقوله ـ ولئن سألتهم ـ أي ولئن سألتهم عن خالق السموات والارض ليعترفن به وقد جعلوا له مع هذا الاعتراف جزءا فوصفوه بصفات المخلوقين ، ومعنى من عباده جزءا أن قالوا الملائكة

(*): فأنشرنا : أخرجنا وهنا بمعنى أحيينا .
(**) الازواج : كناية عن أنواع المخلوقات وأصنافها .
(***) وما كنا له مقرنين : ما كنا قادرين على جعله قرينا مطيعا لنا .
(****) أصفاكم بالبنين : بمعنى خصكم واصطفاهم لكم .
(١) الزخرف : ٩ ـ ١٦

بنات الله فجعلوهم جزءا له وبعضا منه كما يكون الولد بضعة من والده وجزءا منه »[1] .

* * *

وهذا الكون الذي نتصوره جمادا لا حس له ، يعرضه القرآن الكريم ذا نفس وحس ومشاعر وانفعالات ، يشارك في استنكار المقولة المنكرة ـ اتخاذ الله ولدا أو بنات من الملائكة ـ اذ نرى السموات والارض والجبال تغضب وتنفعل حتى لتكاد تنفطر وتنشق وتنهد استنكارا :

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً[*] . تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الجِبَالُ هَدّاً . أَنْ دَعَوْا لِلرَّحمنِ وَلَداً . وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً . إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً . لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عداً وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْداً ﴾[2] .

ان جرس الألفاظ وايقاع العبارات ليشارك ظلال المشهد في رسم الجو : جو الغضب والغيرة والانتفاض ! ان ضمير الكون وجوارحه لتنتفض ، وترتعش وترتجف من سماع تلك القوله النابية ، والمساس بقداسة الذات العلية ، كما ينتفض كل عضو وكل جارحة عندما يغضب الانسان للمساس بكرامته أو كرامة من يحبه ويوقره[3] . قال البيضاوي : « ان هول هذه الكلمة وعظمها بحيث لو تصور بصورة محسوسة لم تتحملها هذه الاجرام العظام وتتفتت من شدتها أو لأن فظاعتها مجلبة لغضب الله بحيث لولا حلمه لخرب العالم وبدد قوائمه غضبا على من تفوه بها »[4] .

---

(١) تفسير الزمخشري ٣/ ٤٨١

(*) ادًا : عظيا أو شديدا أو فظيعا أو منكرا ـ

(٢) مريم : ٨٨ ـ ٩٥

(٣) انظر في ظلال القرآن ٧/٤٥٣

(٤) انوار التنزيل واسرار التأويل ص ٤١٢

ومع هذه الغضبة الكونية يصدر البيان الرهيب : ان كل من في السموات والارض الا عبد يأتي معبوده خاضعا طائعا ، فلا ولد ولا شريك ، انما خلق وعبيد يقضي فيهم القضاء العادل النافذ .

-٣-

الدلالة على قدرة الله ورحمته وتدبيره، وحكمته، وسعة علمه

أ ـ الدلالة على قدرة الله ورحمته وتدبيره :

يحرص القرآن الكريم أن يوجه القلوب والأنظار للتفكر في خلق الله ، وتدبر مشاهده الكونية التي هي أثر من آثار القدرة الشاملة التي لا يعجزها شيء ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[1] . . وكل ما في الكون من مشاهد سماوية وأرضية يجري بتدبير دقيق يشي بالقصد والاختيار ، كما يشي بوحدة التصميم ، ورحمة التقدير قال تعالى :

﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ . خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ . وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ . وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ . وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلا بِشِقِّ الأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ . وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ . وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ . هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ . يُنْبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ . وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ . وَمَا ذَرَأَ لَكُم فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ . إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ . وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ، وَأَلْقَى فِي

---

(١) الملك : ١

ٱلْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَاراً وَسُبُلاً لَعَلَّكُم تَهْتَدُونَ . وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ . أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ . وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصُوهَا إِن الله لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾[1] .

لقد وضعتنا الآيات الكريمة أمام مشهد جامع لملكوت السموات والأرض بما فيه من انسان وحيوان ونبات، وما في الأرض من بحار وجبال وأنهار، وما فوقها من أفلاك وشمس وقمر ونجوم . . وفي كل جزئية من جزئيات المشهد الجامع تتجلى قدرة الله المبدعة المنعمة في جمال وروعة واتساق . فتعرض لبعض مظاهر قدرة الله ، وفضله على عباده ، فهو ـ سبحانه ـ الذي خلق الأنعام كلّها ، ينتفع الانسان منها في وجوه كثيرة . . . فمنها كساؤه وغطاؤه ، الذي يدفع به عادية البرد والحر ، ومنها طعامه الذي يتغذى به ، فيأكل من لحمها ، ولبنها . . وفيها يجد الزينة والجمال ، وعليها يحمل أثقاله ، ويمتطيها ركوبة له الى أماكن بعيدة ، لم يكن يبلغها سعيا على قدميه الا بشق الأنفس . . وذلك من رحمة الله به وشفقته عليه . . (إِنَّ رَبَّكُم لَرَؤُوفٌ رَحِيْمٌ . .) وكذلك يتغذى الانسان من ضرع السماء ، فتتزين الأرض بأشجاره ، وأزهاره ، ويطعم الانسان من حبه وفاكهته . .[2] .

ومن عالم الأرض وما فيها من حيوان ونبات ، الى عالم السماء وما فيها من شمس وأقمار ونجوم ـ ففي كل عالم ، وعلى كل موقع منه ، نظر لناظر ، وعبر لمعتبر . .[3] .

ومشهد من مشاهد الأرض ، هو البحار ، وما سخر الله سبحانه وتعالى فيها من منافع للناس . . حيث يؤكل منها السمك ، ويستخرج منها اللؤلؤ والمرجان للزينة ، وتجري فيها السفن ، وتحمل الناس والمتاع من بلد الى بلد . . وفي مقابل

---

(١) النحل : ٣ ـ ١٨ . ذرأ : خلق وأبدع ـ حين تريحون : تردّونها بالعشي الى المراح . وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر : معنى قصد السبيل سلوك الطريق ، ومعنى جائر معوج عن الطريق وغير قاصد . فيه تسيمون : فيه ترعون دوابكم .

(٢) انظر التفسير القرآني للقرآن : ١٤/ ٢٧٠

(٣) انظر التفسير القرآني للقرآن ١٤/ ٢٧٤

البحر ، وما فيه من نعم ، هذه الأرض اليابسة ، وما فيها من آيات ، وما تحدّث به تلك الآيات من قدرة الله وحكمته . . (وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَاراً وَسُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهتَدُونَ . وَعَلاَمَاتٍ ، وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ) . . فالى جوار معالم الطرق التي يهتدي بها السالكون في الأرض من جبال ومرتفعات ومتعرجات ذكر النجم الذي يهدي السالكين في البر والبحر سواء .

ويعقب السياق على استعراض المشاهد بقوله (وَانْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ اللّهَ لَغَفُورٌ رَحِيْمٌ) . . . وهو خطاب لأولئك الذين نظروا في آيات الله ، وفي النعم التي افاضها عليهم ، وجعلوا يقرءون في صحف هذا الوجود هذه الآيات وتلك النعم ، وانهم لن ينتهوا ابدا من القراءة ، ولن يطووا هذه الصحف ، اذ كلما نظروا الى آيات الله جاءهم منها جديد ، لا يحصيه عد ، ولا يحصره عدد[1] .

***

ومن مظاهر قدرة الله ورحمته ما يحدثنا عنه القرآن الكريم من قدرة الله على التسيير في البر والبحر . ومن رحمته في الانجاء من ظلماتها ومخاوفها ، وما يلابس المسافرين من كرب وضيق ، قال تعالى :

﴿ هُوَالَّذِي يُسَيِّرُكُم فِي البرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيْحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيْحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْموجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيْطَ بِهِمْ دَعَوا اللّه مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّيْنَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِيْنَ ﴾[2] .

هكذا يقرر النص اعتراف البشر بالله ساعة العسرة ، وأنه المعاذ والملجأ الحقيقي ، القادر وحده على كشف الضر والأذى ، والمنقذ وحده من الشدائد ، ويظل الانجاء من ظلمات البر والبحر دالا على قدرته ورحمته ، مشيرا اليهما في مشهد من مشاهد الكون .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ يُنَجِيكُم مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضرُّعاً وَخُفْيَةً لَئِنْ

---

(١) انظر التفسير القرآني للقرآن ١٤/ ٢٨٠

(٢) يونس : ٢٢ ـ ٢٣

أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِيْنَ . قُلِ اللّهُ يُنْجِيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴾[1] .

قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر ؟ ومن ينقذكم من شدائد الأيام وأهوالها ؟ ومن ينير لكم السبيل ، اذا اكتنفكم الظلام ، وأحدق بكم الخطر ، ومن يسكن البحر الهائج والبركان الثائر ؟ . . . هو الرحمن القاهر فوق عباده ، القادر على كل شيء ، تدعونه متضرعين متذللين ، مع رفع الصوت والبكاء في السر والخفاء : لئن انجيتنا من هذه لنكوننّ ممّن يوحدك ويشكرك .

وتقترن قدرة الله ـ سبحانه ـ لدى تأمل الاحياء المتنوعة شكلا ولونا ، وأصلا ونوعا ، ونفعا وضرا ، وهي مع هذا الاختلاف خلقت من اصل واحد .

وتطّرد ظاهرة التنوع في الخلق والاختلاف في الألوان والأشكال سائر موجودات الكون . ولنا عود الى هذا في بحث الاحساس الجمالي في الفصل الثاني من هذا الباب .

ومن بدائع القدرة الالهية في عالم الحيوان السوق الطبيعي أوما يسمى بالغرائز . كما تتجلى هذه القدرة في بث الدواب ونشرها في السموات والأرض ، وفي إمكان جمعها اذا شاء الله وأراد ، قال تعالى :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيْهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيْرٌ ﴾[2] .

فهذه الاحياء المبثوثة في كل مكان ، فوق سطح الأرض ، وفي ثناياها ، وفي اعماق البحر ، وفي أجواز الفضاء ، لا يعلم الانسان منها الاّ النذر اليسير ، ولا يدرك منها بوسائله المحدودة الا القليل المشهور ، هذه الاحياء التي تدب في السموات والارض يجمعها الله حين يشاء ، لا يضل منها فرد واحد ولا يغيب ! وبنو

---

(١) الأنعام : ٦٣ - ٦٤

(٢) الشورى : ٢٩

الانسان يعجزهم أن يجمعوا سربا من الطير الاليف ينفلت من اقفاصهم ، أو سربا من النحل يطير من خلية لهم !

وأسراب من الطير لا يعلم عددها الاّ الله . وأسراب من النحل والنمل وأخواتها لا يحصيها الا الله . وأسراب من الحشرات والهوام والجراثيم لا يعلم موطنها الا الله . وأسراب من الاسماك وحيوان البحر لا يطّلع عليها الا الله . وقطعان من الانعام والوحوش هائمة وشاردة في كل مكان ـ وقطعان من البشر مبثوثة في الأرض في كل مكان . . ومعها خلائق أربى عددا وأخفى مكانا في السموات من خلق الله . . . كلها . . . كلها . . يجمعها الله حين يشاء . .[1] والآية تشير الى وجود دواب في السموات ، ولا نستطيع ان ننكر ذلك ، والعلم يكشف يوما بعد يوم امارات تدل على الحياة في الكواكب . وقد أحس الزمخشري بذلك فقال : « ولا يبعد أن يخلق في السموات حيوانا يمشي فيها مشي الاناسً على الارض ، سبحان الذي خلق ما نعلم وما لا نعلم من أصناف الخلق »[2] .

ب ـ الدلالة على حكمة الله :

وقد عبّر القرآن الكريم عن حكمة الله بقيام خلق السموات والأرض وما بينهما على الحق ، ذلك أن تدبر ما في خلق السموات والارض من دقة وحكمة وقصد ظاهر وتنسيق ملحوظ ، وخلق كل شيء بمقدار لا يزيد ولا ينقص عن تحقيق الغاية من خلقه ، وتحقيق تناسقه مع كل شيء حوله ، وظهور القصد في خلق كل شيء بالقدر والشكل الذي خلق به ، وانتفاء المصادفة والعبث في أي جانب صغر أو كبر في تصميم هذه الخلائق الهائلة وما فيها من خلائق صغيرة . . . وان تدبر هذا كله يوحي بأن هذا الوجود قائم على الحق ، ثابت على الناموس وينفي فكرة المصادفة العمياء ، والهوى المتقلب .

يكرر القرآن هذه الحقيقة في كثير من آياته :

---

(١) انظر في ظلال القرآن ٧/ ٢٨٩

(٢) الكشاف ٣/ ٤٧٠

ـ ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴾(١) .
ـ ﴿ أَلَم تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴾(٢) .
ـ ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ ﴾(٣) .
ـ ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾(٤) .
ـ ﴿ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ . إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾(٥) .
ـ ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ ، مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجلٍ مُسَمَّىً . وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴾(٦) .
ـ ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ﴾(٧) .
ـ ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ ﴾(٨) .

وان من مقتضيات هذا الحق اقامة الحياة في الارض على أسس من الحق والعدل الأزليين الكامنين في بنية الكون وبنية الحياة . ففي آية الروم يربط بين خلق السموات والارض بالحق ، ومصير الانسان : ﴿ أولم يتفكروا في أنفسهم ما خلق السموات والأرض وما بينهما الاّ بالحق وأجل مسمى . وان كثيرا من الناس بلقاء ربهم لكافرون ﴾فيجعل من مقتضيات هذا الحق الذي يقوم عليه الوجود أن يكون هناك آخرة ، يتم فيها الجزاء على العمل ، ويلقى الشر والخير عاقبتها كاملة . لأن كل شيء الى أجله المرسوم ، وفق الحكمة المدبرة .

والوجود يسوده النظام ، وتحكمه القوانين ، والموجودات والوقائع ، والظواهر على اختلاف أسبابها ، وتباين نتائجها انما تتحرك وتتفاعل وتتغير وتتطور حسب نواميس معينة في غاية الدقة ومنتهى الحكمة . ولا يقتصر هذا النظام على المادة فحسب ، بل يشمل كل الوان الوجود في عالم المادة والروح ، وعالم الانسان ، والحيوان ، وعالم النبات ، والجماد ، وعالم الأرض ، والسماء . . . وهكذا .

---

(١) الأنعام : ٧٣
(٢) ابراهيم : ١٩
(٣) الحجر : ٨٥
(٤) النحل : ٣
(٥) العنكبوت : ٤٤
(٦) الروم : ٨
(٧) ص : ٢٧
(٨) الدخان : ٣٨

والله سبحانه وتعالى خلق كل شيء ثم هداه الى غايته التي خلق لها وفق نواميس خاصة ، قال تعالى :

﴿ الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾[1] .

فهذا الوجود الكبير المؤلف مما لا يحصى من الذرات والخلايا والخلائق والاحياء ، وكل ذرة فيه تنبض ، وكل خلية فيه تحيا ، وكل حيّ فيه يتحرك وكل كائن فيه يتفاعل أو يتعامل مع الكائنات الأخرى كلّها تعمل منفردة ومجتمعة في اطار النواميس المودعة في فطرتها وتكوينها بلا تضارب ولا خلل ولا فتور في لحظة من اللحظات !

وكل كائن بمفرده كون وحده وعالم بذاته ، تعمل في داخله ذراته وخلاياه وأعضاؤه وأجهزته وفق الفطرة التي فطرت عليها ، داخل حدود الناموس العام ، في توافق وانتظام[2] .

وكذلك فإنَّ كل شيء في هذا الوجود بقدر لا يخرج عن حده ، قال تعالى :

﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾[3].

وهذا القدر يكون في الحجم والشكل والوزن والعدد والعمر والزمان والمكان والحركة والنشاط والتأثير والتأثر والوظيفة والغاية وغيرها .

كل شيء بقدر وهو كذلك « بالخلقة » و« التكوين » ، والذي يرسم هذا القدر ويصممه هو الله سبحانه وتعالى ، وليس الطبيعة أو الصدفة كما يذهب جملة من الناس ، والسبب واضح لا يحتاج الى ذكاء اذ الطبيعة ذاتها ـ مهما كانت صورتها في تفكيرهم ـ خاضعة لهذا التقدير ، وعليه يكون القول بالطبيعة أو الصدفة باطلا ولا معنى له .

كل شيء بقدر . ولم تكن الأشياء بقدر بارادتها وتصميمها . لأنها لا تملك ارادة

---

(١) طه : ٥٠

(٢) انظر التفسير القرآني للقرآن ١٦/ ٨٠٠ وتفسير في ظلال القرآن ٥/ ٤٧٧

(٣) القمر : ٤٩

ولا تصميا ، وهي تخرج الى حيز الوجود مجبرة لأنها مخلوقة فلا ارادة لها بجانب الخالق .

يقول أ. كريسي موريسون في كتاب « العلم يدعو للايمان » :

« ان وجود الخالق تدلّ عليه تنظيات لا نهاية لها ، تكون الحياة بدونها مستحيلة ، وان وجود الانسان على ظهر الأرض ، والمظاهر الفاخرة لذكائه ، انما هي جزء من برنامج ينفذه باريء الكون »[1] .

« ومما يدعو الى الدهشة أن يكون تنظيم الطبيعة على هذا الشكل ، بالغا هذه الدقة الفائقة . لأنه لو كانت قشرة الارض أسمك مما هي بمقدار بضعة اقدام ، لامتص ثاني أكسيد الكربون الاوكسجين ، ولما أمكن وجود حياة النبات »[2] .

هذه الأمثلة تعطينا صورة مبسطة عن الحكمة المبثوثة في كل شيء ، والانسان كلما ازداد علما ازداد ادراكا للحكمة ، وفي الكون ما لا يحصى من الشواهد ابتداء من الذرة الى أضخم الافلاك .

جـ ـ الدلالة على علم الله :

استدل القرآن بمشاهد الكون على قدرة الله المبدعة ، وتدبيره ، ورحمته ، وحكمته كذلك استدلّ على سعة علم الله وأنه محيط بالأمس واليوم والغد والظاهر والباطن ، بالسماء والارض ، بالدنيا والآخرة . . ومشاهد الكون وما فيها من الإحكام والإتقان برهان على شمول علم الله وحكمته ، قال تعالى :

﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ(*) لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ . وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ(**) بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[3] .

---

(١) العلم يدعو للايمان ص ٤٦٧ ط٣ سنة ١٩٧١

(٢) المرجع نفسه ص ٦٥

(*) مفاتح الغيب : معرفة الامور التي تغيب عنا

(**) جرحتم : اقترفتم وعملتم .

(٣) الأنعام : ٥٩ ـ ٦٠

ففي الآيتين تقرير بأن مفاتح الغيب بيد الله لا يعلمها الا هو ، وقد أحاط علمه بكل صغيرة وكبيرة ودقيقة وجليلة في السموات والأرض والبر والبحر والظلمات ، وهو الذي يتوفى الناس بالليل ويعلم ما كسبوا في النهار ويمدهم بأسباب الحياة الى ان تنتهي آجالهم المعينة عنده ، ثم يرجعون اليه ليحاسبهم على ما فعلوه .

والآية الأولى تعرض ألوانا من علم الله الشامل المحيط الذي لا يعزب عنه شيء في الزمان والمكان ، في الأرض والسماء ، في البر والبحر في جوف الأرض وفي طباق الجو ، من حيّ وميت ويابس ورطب . . .

ان الخيال البشري لينطلق وراء النص القصير يرتاد آفاق المعلوم والمجهول ، وعالم الشهود وعالم الغيب ، يتتبع ظلال علم الله في أرجاء الكون الفسيح ، ووراء حدود هذا الكون المشهود . . . وان الوجدان ليرتعش وهو يستقبل الصور والمشاهد من كلّ فج وواد . وهو يرتاد ـ أو يحاول أن يرتاد ـ أستار الغيوب المختومة في الماضي والحاضر والمستقبل ، البعيدة الآماد والآفاق والأغوار . . . مفاتحها كلّها عند الله ، لا يعلمها الا هو . . . ويجول في مجاهل البر وفي غيابات البحر ، المكشوفة كلّها لعلم الله . ويتبع الأوراق الساقطة من أشجار الأرض ، لا يحصيها عد ، وعين الله على كل ورقة تسقط ، هنا وهناك . ويلحظ كلّ حبة مخبوءة في ظلمات الأرض لا تغيب عن عين الله . ويرقب كل رطب وكل يابس في هذا الكون العريض لا يندّ منه شيء عن علم الله المحيط[1] .

وقوله تعالى : (وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ) بيان لبعض علم الله ، وتخصيص البر والبحر ، لأنهما مما يقعان تحت حواسنا ، وقوعا دائما متصلا ، ومع هذا فانهما مما هو غيب عنا ، اذ ان كل ما نعلم من أمرهما ، هو قليل الى ما لا نعلم . . . ثم ان هذا العلم الذي نعلمه هو جهل بالنسبة لعلم الله ، الذي يعلم حقائق الأشياء ، وما أودعته من اسرار ، أما علمنا فهو واقف عند ظواهرها ، لا ينفذ الى الصميم من أعماقها[2] » وعلمه تعالى بما في البر والبحر من علم الشهادة المقابل لعلم الغيب ،

---

(١) انظر في ظلال القرآن ٣/ ٢٤٩ .
(٢) انظر التفسير القرآني للقرآن ٤/ ٢٠١

على أن اكثر ما في خفايا البر والبحر ، غائب عن علم أكثر الخلق وان كان في نفسه موجودا يمكن أن يعلمه الباحث منهم ، وقدم ذكر البر على البحر على طريقة الترقي من الأدنى الى ما هو اعظم منه فان قسم البحر من الأرض أعظم من قسم البر وخفاياه أكثر وأعظم »[1] .

والقرآن الكريم يسلك طريق المحسوسات لبيان شمول العلم الالهي واحاطته ، ليهدف الى تقريب المعاني لأذهان الناس . قال تعالى :

﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيْهَا وَهُوَ الرَّحِيْمُ الْغَفُورُ ﴾[2].

يقف الانسان أمام حشد هائل عجيب من الأشياء ، والحركات ، والحجوم ، والشكول ، والصور ، والمعاني ، والهيئات ، لا يثبت لها الخيال !

ولو أن أهل الأرض جميعا وقفوا حياتهم كلها يتتبعون ويحصون ما يقع في لحظة واحدة مما تشير اليه الآية لأعجزهم تتبعه واحصاؤ ه ومعرفته عن يقين !

فكم من شيء في هذه اللحظة الواحدة يلج في الأرض ؟ وكم من شيء في هذه اللحظة يخرج منها ؟ وكم من شيء في هذه اللحظة ينزل من السماء ؟ وكم من شيء في هذه اللحظة يعرج فيها ؟

ان الله وحده هو الذي يعلم كل ما يلج في الأرض ويدخل فيها من بذور وماء وثمار وكنوز ودفائن وأجسام ، ويعلم كل ما يخرج منها من نبات وأشجار ، وحيوان ومياه ومعادن وأحجار ، ويعلم ما ينزل من السماء من مطر وثلوج وصواعق وأرزاق وما يعرج فيها ويصعد اليها من الملائكة وأعمال العباد[3] .

وقد عبر القرآن الكريم عن علم الله بالجزئيات باحاطته بأعمال الناس ، ولو

---

(١) المنار ٧/ ٤٥٧

(٢) سبأ : ٢

(٣) انظر في ظلال القرآن ٦/ ٦٢٦ وما بعدها

كانت متناهية الصغر كحبة خردل وضعت في جوف صخرة في السموات والأرض ، فقال على لسان لقمان لابنه :

﴿ يَابُنَيَّ إِنهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ ، إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾[1].

قال الزمخشري : « أي ان كانت مثلا في الصغر ، والقماءة كحبة الخردل فكانت مع صغرها في أخفى موضع وأحرزه كجوف الصخرة أو حيث كانت في العالم العلوي أو السفلي (يأت بها) يوم القيامة فيحاسب بها عاملها (ان الله لطيف) يتوصل علمه الى كل خفي (خبير) عالم بكنهه »[2] .

***

والآيات الكونية التي استدل بها على قدرة الله وتدبيره ورحمته وحكمته وسعة علمه كثيرة ، ويكفي ماعرضناه منها لنتبين كيف اتخذها القرآن الكريم وسائل لتحقيق تلك الأغراض .

***

---

(١) لقمان : ١٦
(٢) الكشاف : ٣/٢٣٣

ثانيًا: الإيمان بالكتاب والنبوة والبعث

ليس الايمان بالله وإثبات وجوده وتوحيده وبيان قدرته ورحمته وسعة علمه بمعزل عن حقائق أخرى هامة في الفكر الاسلامي، كالإيمان بالكتاب والنبوة والبعث. بل ان الحقائق الأخيرة لتتفرع عن تلك التي سبقتها في كثير من الآيات القرآنية قال تعالى:

﴿آلر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ. ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ أَلا تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ. وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعاً حَسَناً إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى، وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ، وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ. إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[1].

---

(١) هود: ١ ـ ٥

- ١ -

الكتاب

المراد بالكتاب في اصطلاح الاسلام هو القرآن الكريم ، وهو كلام الله الذي أوحاه الى رسوله محمد ﷺ لهداية عباده ، واصلاح حياتهم ، وتسديد خطاهم ، قال تعالى :

﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾(١).

وهذا الكتاب حق لا يأتيه الْبَاطِلُ من بين يديه ولا من خلفه ، وأنى للباطل أن يأتيه وهو صادر من الله الحق ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾(٢).

والمتدبر لهذا القرآن يجد فيه ذلك الحق الذي نزل به ، يجده في روحه ، ويجده في نصّه اذ يخاطب أعماق الفطرة ويؤثر فيها التأثير العجيب .

ولكن هذه الحقيقة رغم سطوعها ، وتضافر أدلتها ، غفل عنها المشركون ، أو تغافلوا عنها ، فجادلوا في آيات القرآن ، وتطاولوا على مقامه العظيم في قحة ، وتعنت وعناد ، وجنوح عن الهدى المبين فزعموا : أن ليس في القرآن من أخبار سوى أساطير الاولين ، أو أضغاث أحلام ، وأنه قول شاعر ، وغيرها من التخرصات ، والظنون والافتراءات . . . وقد عرض القرآن تطاولهم ، وردّ عليه عقب عرضه بما يظهر سخف أمرهم وكذبه فقال :

---

(١) ابراهيم : ١

(٢) فصّلت : ٤١ ـ ٤٢

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا : إِنْ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُون ، فَقَدْ جَاءُوا ظُلْماً وَزُوراً . وَقَالُوا : أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً . قُلْ : أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السرّ فِي السَّمَوَاتِ والأَرْضِ ، إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً﴾[1] .

إنه الله عالم الاسرار ، يعلم نبأ الأولين والآخرين و (يَعْلَمُ السرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ) . . . وأين علم حفاظ الأساطير من علمه الشامل ؟ وأين اساطير الأولين من السر في السموات والارض .

وقال تعالى :

﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللّهِ ، وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ ، لاَ رَيْبَ فِيْهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[2] .

فهو بخصائصه الموضوعية والتعبيرية . بهذا الكمال في تناسقه وبهذا الكمال في العقيدة التي جاء بها ، وبما دعا اليه ؛ وبهذا الكمال في تصوير حقيقة الألوهية ، وفي تصوير طبيعة البشر ، وطبيعة الحياة ، وطبيعة الكون . . . لا يمكن ان يكون مفترى من دون الله ، لأن قدرة واحدة هي التي تملك الإتيان به هي قدرة الله . القدرة التي تحيط بالأوائل والأواخر ، وبالظواهر والسرائر[3] .

وقد رسم القرآن ـ مستعينا بالمشاهد ـ صورة فريدة لعظمة القرآن ، حين ردّ على طلبهم آية كونية خارقة ، فبين أنه لو كان من شأن اي قرآن ان تسيرّ به الجبال ، أو تقطّع به الأرض ، أو يكلّم به الموتى ، لكان قرآن المسلمين هو الذي تتم به هذه الخوارق والمعجزات ، ومع ذلك فان له هدفا أعظم من هذا الهدف ، هو هداية الناس . قال تعالى :

﴿وَلَوْأَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ ، أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ ، أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى . بَل لِلّهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً ؛ أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِيْنَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيْعاً ، وَلاَ

---

(١) الفرقان : ٤ ـ ٦

(٢) يونس : ٣٧

(٣) انظر في ظلال القرآن ٤ / ٤١٩ وما بعدها .

يَزَالُ الَّذِيْنَ كَفَرُوا تُصِيْبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ ،أو تَحُلُّ قَرِيباً مِّنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللّهِ ، إِنِ اللّهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيْعَادِ ﴾[1].

وها نحن أولاء نشهد أن زمن الخوارق والمعجزات قد ذهب ، وظروفه قد انصرمت ، وحل زمن البينات والشواهد الماثلات ، وليس هناك شواهد أبين من آيات الله في كتابيه المنظور والمسطور ، فهما أثران باقيان ماثلان ما شاء الله ، وقد شاء سبحانه أن يجعلهما الدليل وليس الخوارق والمعجزات المخالفةُ للمألوف من العادات[2] . وتلك نقطة هامة جدا في الفكر القرآني .

وفي موضع آخر صور الله عظمة هذا القرآن بصورة مقاربة للصورة السابقة ، ولكن جعل أثره في الجبال خاصة ، وبيّن أنّ الله لو كلف الجبال بالقرآن أن تنفذه وتطبقه بعد أن يعطيها التمييز والارادة والحرية والاختيار ، لتصدعت تلك الجبال خوفا من الله ، واعظاما لكلامه ، وذلك مثل مضروب للناس لعلهم يتأملون فيه فيعرفون فضل القرآن وعظمته وقدسيته قال تعالى :

﴿ لَوْأَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىَ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ اللّهِ ، وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[3].

والله خالق الجبال ومنزل القرآن وفي الآية تمثيل وتخييل ، والغرض منه توبيخ الانسان على قسوة قلبه ، وقلة تخشّعه عند تلاوة القرآن ، وتدبّر قوارعه وزواجره[4] .

وليس القرآن ألفاظا وعبارات يحاول الانس والجن أن يحاكوها . انما هو كسائر ما يبدعه الله في الكون يعجز المخلوقون أن يصنعوه ، ولو تظاهروا وتعاونوا في ذلك . قال تعالى :

﴿ قُلْ : لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىَ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنَ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَو كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾[5].

---

(1) الرعد : ٣١
(2) انظر تفسير البيضاوي ص ٣٣٣
(3) الحشر : ٢١
(4) انظر تفسير الزمخشري ٨٧/٤
(5) الاسراء : ٨٨

وعندما قصر ادراك المشركين عن التطلع الى آفاق الاعجاز القرآني راحوا يطلبون الخوارق المادية ، ويتعنتون في اقتراحاتهم الدالة على الطفولة العقلية ، أو يتبجحون في حق الذات الالهية بلا أدب ولا تحرج . . . ويحدثنا القرآن أن المشركين جعلوا ايمانهم بنبوة الرسول ﷺ رهن الآيات المحسوسة التي طلبوها على أشكال متنوعة ، وصفات متباينة ، فأرادوا أن يفجّر لهم ينبوعا من الأرض ، أو ان يجعل له بستانا من نخيل وعنب تجري فيه الانهار ، أو يسقط عليهم السماء قطعا قطعا ، أو أن يكون له بيت من المعادن الثمينة ، أو أن يصعد في السماء فيروا ذلك بأعينهم ومع ذلك لا يؤمنون له الا اذا أنزل عليهم كتابا يقرؤنه ، بل انهم تمادوا في طغيانهم وسفاهتهم حتى طلبوا اليه ان يأتيهم بالله والملائكة ، يروهم رأي العين أمامهم[1] ، قال تعالى :

﴿ وَقَالُوا : لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعاً . أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلاَلَهَا تَفْجِيراً . أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ - كَمَا زَعَمْتَ - عَلَيْنَا كِسَفاً[*] ؛ أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلاَئِكَةِ قَبِيلاً . أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى[**] فِي السَّمَاءِ ، وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَؤُهُ . قُلْ : سُبْحَانَ رَبِّي ! هَلْ كُنْتُ إِلاَّ بَشَراً رَسُولاً ؟ ﴾[2] .

وليس من شك أن هذه الاقتراحات كثيرة ، وثقيلة أيضا ، الا انها ليست كذلك على قدرة الله سبحانه ، فقد أوتي الانبياء من قبل محمد - صلوات الله عليهم - آيات محسوسة كثيرة ، فقد فجر الله الحجر ينابيع لموسى عليه السلام ولقومه ، وظلل عليهم الغمام ، وأنزل عليهم المنّ والسلوى ومكّن عيسى عليه السلام من أن ينفخ في الطين كهيئة الطير فيكون طيرا بإذن ربه . وآتى صالحا الناقة وغير ذلك من الآيات المحسوسة التي كانت مشاهد الكون مجالها ومادتها . . وتلك كانت آيات وقتية زالت بزوال أزمانها وأقوامها ، ولقد أراد الله لهذه الامة ان تكون آيتها ثابتة لا تتبدل ،

---

(١) انظر في ظلال القرآن ٥/ ٣٥٩

(*) كسفا : قطعا

(**) ترقى الى السماء : تصعد فيها

(٢) الاسراء : ٩٠ - ٩٣

وباقية لا تزول ، لأن الرسالة التي اعتنقتها ، آخر الرسالات ، ولذلك كان القرآن هو الخارقة الباقية ، والآية الخالدة التي لا يحدها زمان في المستقبل ، بل تبقى الى يوم القيامة[1] .

***

ويقسم الله بالخلائق العظيمة على عظمة القرآن :

﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ . وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ . إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ . فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ . لاَ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ . تَنزِيلٌ مِنْ رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[2] .

- ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ . وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ . إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ . وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴾[3] .

ففي النص الاول يقسم الله بمواقع النجوم في فضائها الواسع حيث تشرق وتغرب ، والقسم يومىء الى المنزلة التي ينبغي أن نحفظها لهذا القرآن ! فهو عالم من المعاني يتكافأ في جلاله مع هذا العالم المادي الذي نحبو على كرة منه .

وفي النص الثاني يقسم الله بالسماء التي ينزل منها المطر باستمرار مرة بعد مرة ، وبالأرض المتصدعة المتشققة بالنبات النامي الناضر الجميل ، ثم يجعل هذا القسم اطارا لحقيقة من حقائق القرآن ، وهو انَّه قول فاصل بين الحق والباطل ، وليس بذلك الكلام الذي يعتوره الهزل .

وتكرر القسم في موضع آخر ، كان القسم فيه بالمرئي وغير المرئي . وما لا نرى من مشاهد هذا الكون أضعاف ما نراه . وبكل أقسم الله على روعة القرآن وصدوره منه وحده ، وتنزهه أن يصدر من مخلوق ما ، قال تعالى :

---

(١) انظر المعجزة الكبرى (القرآن) - محمد أبو زهرة ص ٨ - ١٤ . دار الفكر العربي - القاهرة ، ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م .

(٢) الواقعة : ٧٥ - ٨٠

(٣) الطارق : ١١ - ١٤

﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ، وَمَا لاَ تُبْصِرُونَ . إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ[*] ، وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيْلاً مَا تُؤْمِنُونَ ، وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيْلاً مَّا تَذَكَّرُون ، تَنْزِيْلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[1] .

ويظهر هذا القسم في ثوب آخر ، يتناول المكان والزمان جميعا ويضم في طياته مواكب الأحياء وهي سائرة الى مصيرها ، تخرج من ظلام الليل لتبرز في وضح النهار ، وتودّع حركة النهار لتستقبل هدأة الليل ، وتدور بها الأرض لتستقبل صفحات النجوم بعدما سبحت فترة في اشعة الشمس .

يقول تعالى : ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ . وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ . وَالْصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ . إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ . مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ .وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ﴾[2] .

هكذا نجد أن الله اتخذ من مشاهد الكون وظواهره دلائل على عظمة القرآن وبيان منزلته ، والإشعار بنفعه وخيره وبركته .

(*) انه لقول رسول كريم : أي قول محمدﷺ ، ومعنى انه قوله أنه بلسانه لكم مبلغا ، بعد أن القى في روعه وحيا والا فان القرآن كلام الله . وفي اضافة القول اليهﷺ بعنوان أنه رسول لا باسمه العلمي وهو محمد ـ ما يدفع الشبهة المذكورة وذلك لأن قول الرسول هو في الواقع ونفس الأمر قول صادر عن مرسله ، وانما الرسول مبلغ له . (تفسير جزء تبارك ـ المغربي ص ٩٢) .

(١) الحاقة : ٣٨ ـ ٤٣

(٢) التكوير : ١٥ ـ ٢٢ الخنس : المراد النجوم التي تجري مع الشمس نهارا فلا ترى . الكنس : النجوم التي تختفي عند طلوع الشمس . والليل اذا عسعس : أقبل ظلامه أو ادبر . رسول كريم : هو جبريل صلوات الله عليه .

- ٢ -

النبوة والرسالة

النبي هو من أوحى اليه بأمر من الله ، سواء كلّف بتبليغه أم لا ، فان كلّف بتبليغه كأن أوحى اليه بشرع أو كتاب الى عامة الناس ، فهو رسول أيضا ، وعلى هذا فكل رسول نبي ، اذ الرسالة الى الناس فرع من النبوة من الله ، وليس كل نبي رسولا ، اذ قد يكون موحى اليه ، دون تكليف له بالتبليغ .

وقد تعاقبت رسالات السماء على الانسان أمة بعد أمة ، وجيلا بعد جيل ، وكلّها ذوات هدف واحد وهو توجيه الانسان الى طريق الكمال ، واتحدت أصول الرسالات وعقائدها الأولى ، لا تختلف رسالة عنها في رسالة أخرى قال تعالى :

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ، وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ، أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾[1] .

ولقد قرر القرآن الكريم أن الرسالات الالهية ختمت برسالة محمد عليه الصلاة والسلام ، وأنه خاتم الأنبياء ، وأن ثبوت النبوة المحمدية ثبوت لكافة النبوات . ولسنا هنا بصدد تقصي هذه المسألة ، بقدر مما يهمنا ان نبين استدلال القرآن الكريم بمشاهد الكون وظواهره عليها :

قال تعالى :

﴿ قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ، فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ ، وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾[2] .

---

(١) الشورى : ١٣ (٢) الأعراف : ١٥٨

فالقرآن يحثّ الرسولﷺ على ان يعلن للناس كافة انه رسول الله اليهم كافة ، ثم يعقب ذلك ببيان حقيقة من حقائق الكون متصلة بالاله سبحانه ، وهي أنه تعالى (له ملك السموات والأرض) .

ونحن نعلم أن الاستدلال بملكية الله السموات والأرض ، ورد في أكثر من آية للدلالة على توحيد الله ، وهو هنا لم يسق لهذا الغرض ، بل سيق لاثبات « عالمية الرسالة المحمدية » وهي أن محمداﷺ رسول الله الى الناس جميعا . وأما التعقيب عليه بقوله (لا إله الا هو يحيي ويميت) فقد سيق هنا لبيان قوله (له ملك السموات والارض)[1] ، لأن الذي له ملك السموات والارض ، لا بد أن يكون الاله الذي لا إله الا هو ، بدليل القرآن نفسه في آيات كثيرة[2] ، وبدليل المنطق الفطري الواضح . وانما ذكرت ملكية الله للسموات والأرض في هذه الآية لاثبات عالمية الرسالة المحمدية كما بيّنا ، وان أشعرت بالوحدانية دون شك .

فالذي يملك الوجود كلّه قادر على أن يرسل رسولا الى الناس جميعا ـ وهم من هذا الوجود ـ والذي له الالوهية على الخلائق وحده والذي هو يحيي ويميت . . هو الذي يستحق أن يدين الناس بدينه ، الذي يبلغه اليهم رسوله[3] .

وكذلك استدل القرآن على صدق نبوة محمدﷺ بملكية الله للسموات والأرض :

﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ . أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ . إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ، يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ، مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ، ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ، أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾[4] .

---

(١) قال الزمخشري « وقوله (لا اله الاّ هو) بدل من الصلة التي هي (له ملك السموات والارض) الكشاف ١٢٣/٢

(٢) انظر : البقرة : ١٦٤ والأنعام : ١٤ ويونس : ٣ والكهف : ١٤ وغيرها

(٣) انظر في ظلال القرآن ٣/ ٦٥١

(٤) يونس : ١ ـ ٣

ذلك أن المشركين حين عجبوا من ارسال رسوم منهم اليهم ، كان لا بد من ازالة الوهم الذي هم فيه سادرون ، واثبات وجوب ارسال رسول اليهم يهديهم سبل الخير والصلاح ، ومن هنا فان القرآن قد توسّل بوسيلة من وسائله في اثبات التوحيد وهي قدرة الله على خلق السموات والارض في ستة ايام ، من أجل اثبات نبوة محمدﷺ ، وتقرير أنه نبي مرسل من الله . فكأنه يوحي اليهم أن القدرة التي ابدعت هذه الاجرام الضخمة التي تدهش الحس والعقل ، والحكمة التي كونتها بهذا النظام والنسق العجيب ، شاءت أن تبعث برسول الى الناس يعلمهم الكتاب والحكمة ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمون ، واختيار هذه العناصر الضخمة في هذا الاستدلال يتناسب وضخامة النبوة وأهميتها في مصير البشرية ومستقبلها .

وشبيه بهذا في نفي العجب من نبوة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وقد استكثرها عليه المشركون ، اذ تمنوا ان تكون لرجل من القريتين عظيم ، ما ورد في سورة آل عمران ، من بيان الله تعالى على تخالف الاشياء الطبيعية وتباينها ، كالتعاقب بين الليل والنهار واخراج ما فيه حياة ، مما لا تبدو عليه الحياة ، قال تعالى :

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ ، بِيَدِكَ الْخَيْرُ ، إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ، وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ، وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (١)

فسرّ صاحب (المنار) الملك بالنبوة أو لازمها لأن النبوة ملك كبير اذ سلطانها على الاجساد والأرواح ، والظاهر والباطن « ان الكلام متصل بما قبله ، صح ما قيل في سبب النزول أم لم يصح ، والكلام في حال النبيﷺ مع من خوطبوا بالدعوة من المشركين وأهل الكتاب ، فالمشركون كانوا ينكرون النبوة لرجل يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ، كما أنكر أمثالهم على الانبياء قبله . وأهل الكتاب كانوا ينكرون أن يكون نبي من غير آل اسرائيل وقد عهد في غير موضع من القرآن تسلية النبيﷺ في

(١) آل عمران : ٢٦ ـ ٢٧

مقام بيان عناد المنكرين ومكابرة الجاحدين وتذكيره بقدرته على نصرة واعلاء كلمة دينه . . (تولج الليل في النهار . . الآية) أي تدخل طائفة من الليل في النهـار ، فيقصر الليل من حيث يطول النهار ، وتدخل طائفة من النهار في الليل فيطول هذا من حيث يقصر ذاك ، أي انك بحكمتك في تدبير الأرض وتكويرها وجعل الشمس بحسبان تزيد في أحد الجديدين ما يكون سببا لنقص الآخر فلا ينكر على قدرتك وحكمتك أن تؤتى النبوة والملك من تشاء كمحمد وأمته وتنزعهما ممن تشاء كبني اسرائيل ، فإنك تتصرف في شئون الناس كما تتصرف في الليل والنهار »[1] .

وقد عمد القرآن الى تسلية الرسول ﷺ بأسلوب فريد ، وهو أن يدع مقولات المشركين وجدالهم مع النبي الكريم ، ليبدأ جولة في مشاهد الكون ومجاليه ، في جولة رائعة بديعة بين ارجائه ، يخفف بها عن الرسول ﷺ مضايقات المشركين وعنادهم ، ويعرض أمامه صفحة الكون الجميلة الزاهية ، والآفاق الوسيعة المزدهرة ليتضاءل في نفسه عناد المعاندين ومضايقاتهم ، وليجد في هذا الكون الفسيح ، وآفاقه المترامية ما يسري به عن نفسه ، ويذهب عنها ما ألمَّ بها من ضيق ، وما خالطها من كرب . قال تعـالى : ﴿ أَرَأَيْتَ من اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُوْنُ عَلَيهِ وَكِيلاً . أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ ، بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيْلاً . أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَو شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنَاً ، ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً . ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضَاً يَسِيراً . وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسَاً وَالنَّوْمَ سُبَاتَاً ، وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُوراً . وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ، وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً . لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً ، وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامَاً وَأَنَاسِيَّ كَثِيْرَاً . وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُم لِيَذَّكَّرُوا ، فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً ـ وَلَو شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيْرَاً . فَلاَ تُطِعِ الْكَافِرِيْنَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً . وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخَاً وَحِجْرَاً مَحْجُوراً ﴾[2] .

---

(١) تفسير المنار ٣/ ٢٦٩ وما بعدها

(٢) الفرقان : ٤٣ - ٥٣

والقرآن يوجه النفوس والعقول دائما الى مشاهد الكون ، ويربط بينها برباط وثيق ، فهو يجعل من هذا الكون الجميل مجالا يجد فيه الانسان غبطته ، ويلقى فيه مسرته ، ويحسّ فيه بتيقظ مشاعره ، وتفتح نفسه . ومن هنا كانت رحلة الرسول ﷺ الى تلك الآفاق والمشاهد عزاء له عما يلقاه في الأرض من توافه ، واشعارا له بالطمأنينة ، وهو يتأمل في هذا الكون الساجي الهادىء الوديع ، وتمكينا له من أن يواصل جهاده في سبيل الدعوة الاسلامية ، والثبات على تبليغ رسالة ربه . فهو ينقله الى الظل بما فيه من منظر لطيف متجليا في امتداده ثم انقباضه ، ويد الله الخفية تحركه بلطف ، تنشره على ارجاء المعمورة ، ثم تجمعه وتخفيه وتنقله الى الليل الساجي البديع الذي يركن فيه الانسان الى الراحة والى النهار المبصر الذي ينتشر فيه الناس في الأرض بعد أن غيبهم الليل في سكونه ولطفه ، وينقله الى الرياح المبشرات اللائي ينتقلن من مكان الى مكان بقدرة الله ورحمته ، يزرعن الخير ، ويبثن الحياة ، بما يسقنه من سحاب محمّل بالغيث والجود الذي ينزل من السماء فاذا الحياة تدب فيما هو ساكن هامد ميت . واذا به سقيا للأنعام وللأناسى ، يمرعون في خيراته ، وينعمون في بركاته . ثم ينقله الى محيط آخر بعيد فسيح ، الى البحر الملح ، وأخيه العذب ، اللذين تجلت قدرة الله فيهما ، يجعلهما متجاورين على مودة وصفاء لا يطغى أحدهما على صاحبه ، ولا يتجاوز حده الى حد أخيه[1] .

فالقرآن إذن ينقل الرسول ﷺ بين السماء وخيراتها ، والأرض ونعمها ، ليسليه بذلك ويؤنسه ، وليسري عن نفسه .

وفي موضع آخر يسليّ القرآن الرسول ﷺ حينما أعرض عنه المشركون وعاندوه - بمشاهد القرى المؤتفكة ، والاطلال الباقية ، والرسوم الماثلة تلك التي تثير العبرة ، وتذكى الموعظة ، وتذكر بمصارع المكابرين ، ومصاير الجاحدين المعاندين :

﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُم قَومُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ . وَقَومُ إِبرَاهِيمَ وَقَومُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ ، وَكُذِّبَ مُوسَى ، فَأَملَيْتُ(*) لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ، فَكَيْفَ كَانَ

---

(١) انظر في ظلال القرآن ٦/١٦٧ وما بعدها

(*) أمليت : أمهلت .

نَكِيرُ . فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا ، وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ . أَفَلَم يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ ، فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ؟ أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ! فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ ، وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[1].

يعرض القرآن من تلك المشاهد الباقية من حياة الأقوام ، بقايا الديار الخربة ، وآبارها المعطلة التي لا ينتفع أحد منها بالسقاية ، وقصورها المشيدة التي خلت من ساكنيها ، وغدت خرابا يبابا ، فهي تقع تحت أنظار السائرين ، وبصائر المتأملين ، فلو أمعن أولئك المعرضون الجاحدون فيها التأمل ، ووقفوا النظر لوجدوا في مشاهدها ما يثنيهم عن غيهم ، ويردّهم عن مكابرتهم ، وفي هذه المناظر المثيرة للعبرة ، تسلية للرسول ﷺ وتسكين له ، وتخفيف عما يعانيه من جحود وانكار ، اذ يتبين أولا أن ذلك الذي يلقاه قديم ، ويعلم ثانيا ، أن مصير من درجوا عليه من سالف الاقوام ليس بالمصير السليم .

---

(١) الحج : ٤٢ ـ ٤٦

- ٣ -
البعث والنشور

للقرآن الكريم في اثبات الآخرة طريقان عقليان أحدهما مباشر وذلك ببيان إمكان البعث والنشور . وثانيهما اخبار الأنبياء عن الحياة الآخرة بعد أن تثبت نبوتهم ويقوم الدليل عليها .

وقد كانت مشاهد الكون المنظور ـ السماء، الأرض ، الماء ، النبات ، الليل والنهار ـ الدليل المباشر لتحقيق أغراض القرآن الكريم في هذا كله .

استدل القرآن الكريم بأحوال السّماء والأرض وما بينهما على البعث والنشور ، فالذي خلق هذا الكون العظيم البديع المتسق على غير نظير سابق ، ولا مثال محتذى ، والذي أوجد هذه الأجرام من العدم ولم يعجزه انشاؤ ها ، قادر على أن يبعث الانسان وينشئه نشأة جديدة ، قال تعالى :

- ﴿. . وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً(*) أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً ؟ أَوَلَمْ يَرَوا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ والأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىَ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم ؟ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لاَ رَيْبَ فِيهِ ، فَأَبَى الظَّالِمُونَ إلاَّ كُفُوراً ﴾[1] .

- ﴿ إنَّ الَّذِينَ يُجادِلُون فِي آيات اللهِ بغَيرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُم إنْ في صدورهم الاّ كِبر ما هُم ببَالِغيه ، فاستَعِذْ باللهِ ، إنّه هُوَ السميعُ البَصير . لَخلقُ السموات والأرض أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ الناس ، ولَكنَّ أكثر الناس لا يعلمون . ومَا يَستَوي الأعمَى والبَصير ، والّذين آمَنُوا وعَمِلُوا الصَالِحَاتِ ولا المُسيء ، قَليلاً مَا تَتَذكَّرُون . إنَّ السَّاعةَ لآتيةٌ

(*) رفاتا : اجزاء مفتتة . أو ترابا أو غبارا .

(1) الاسراء : ٩٨ - ٩٩

لا رَيْبَ فِيها ، ولَكنَّ أكثرَ الناسِ لا يُؤْمِنُون . وَقَالَ ربُكُم ادعوني اسْتَجِبْ لَكُمْ ، إنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتي سَيَدْخُلون جَهَنَّم دَاخِرِين(**) ﴾(١) .

ـ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللّهَ الَّذِي خَلَقَ السموَاتِ وَالأَرْضَ ، وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىَ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوتَى ؟ بَلَى إِنَّهُ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِير﴾(٢) .

ان المسألة لمنطقية جدا ، لا تكلف فيها ولاغرابة،فان الذي خلـق السمـوات والارض ، وقد اعترفوا له بذلك ـ مع ما لها من ضخامة في الحس والواقع ، ولم يعجزه ايجادهما وفطرهما ، لقادر على أن يحيي الانسان ، ذلك الذي لم يعدم وجوده في الكون ، بل تفرقت أجزاؤه فيه ، رفاتا وعظاما ، فإيجاد شيء من عدم ، أكثر ايغالا في القدرة ، من اخراج موجود ، والذي قدر على الاول ، لا بدّ أن يقدر على الثاني .

قال الزمخشري في تفسير النص الاول : « قد علموا بدليل العقل أن من قدر على خلق السموات والارض فهو قادر على خلق أمثالهم من الانس لأنهم ليسوا بأشـد خلقا منهن كما قال ـ أأنتم أشد خلقا أم السماء ـ (وجعل لهم أجلا لا ريب فيه) وهو الموت أو القيامة فأبوا مع وضوح الدليل الا جحودا » (٣) .

وكما استدل القرآن بخلق السموات والارض وما بينهما ، على قدرة الله سبحانه على البعث ـ استدل أيضا ـ كعادته في الاستدلال على الحقائق الكبرى ـ بملكية الله للسموات والأرض ، وتفرده بالسلطة فيهما ، والهيمنة عليهما ، وعلى من فيها من الخلائق . وهـو استـدلال لا يختلف عن الاستـدلال الأول في ادراك العقـل له ، واستشعار الوجدان اياه في يسر ووضوح . وبخاصة أن الذين ينكرون البعـث لا ينكرون أن الله خالق السموات والارض ومالكهما كما أشرنا الى ذلك من قبل (٤).

(**) داخرين : صاغرين اذلاء

(١) غافر : ٥٦ ـ ٥٩

(٢) الاحقاف : ٣٣ ولم يعي : ولم يعجز ويتعب

(٣) الكشاف ٢/٤٦٧

(٤) انظرمبحثي اثبات وجود الخالق والدلالة على وحدانية الله من هذا الفصل

قال تعالى :

﴿ قُـلْ لِمَنْ ما في السَّمَـوَاتِ وَالأَرْضِ ، قُل لِلَّـهِ ، كَتَـبَ عَلَىٰ نَفْسِـهِ الرَّحْمَـةَ ، لَيَجْمَعَنَّـكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَـةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ ، الَّـذِيْنَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُـمْ فَهُـمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾[1] .

ولقد لفت القرآن الانظار الى آيات الله المحيطة بالغافلين : من سماء رفعها ، وأرض بسطها ، وأنهار أجراها ، وجبال أرساها ، فاذا كانت له هذه الآيات كيف يعجز عن بعث الناس ؟ قال تعالى :﴿ أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها . رفع سمكها فسواها ، وأغطش ليلها وأخرج ضحاها . والأرض بعد ذلك دحاها . أخرج منها ماءها ومرعاها . والجبال ارساها . متاعا لكم ولأنعامكم ﴾[2]

وقال تعالى :

﴿ . . . بَلِ الَّذين لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ والضَّلاَلِ الْبَعِيدِ. أَفَلَمْ يَرَوا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِنَ السَّماءِ وَالأَرْضِ ؟ إِنْ نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الأَرْضَ ، أَو نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفَاً مِنَ السَّماءِ ، إِن فِي ذَٰلِكَ لآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴾[3] .

والسياق هنا ، أشعر بالقدرة والرحمة الالهيتين ، الا أنه لا يعدم التهديد والوعيد من طرف آخر ، فكأنه قيل لو شاء الله لعذبهم بذنوبهم التي اجترحوها ، كانكارهم البعث والنشور . والمشهد الكوني العنيف منتزع من مشاهداتهم أو مدركاتهم الحسية على كل حال . فخسف الارض يقع ويشهده الناس . وترويه القصص . وسقوط قطع من السماء يقع كذلك عند سقوط الشهب وحدوث الصواعق . وهم قد رأوا شيئا من هذا أو سمعوا عنه . فهذه اللمسة توقظ الغافلين ، الذين يستبعدون مجيء الساعة . والعذاب أقرب اليهم لو أراد الله أن يأخذهم به في هذه الارض قبل قيام الساعة . وهذه السماء التي يجدونها بين أيديهم ومن خلفهم ، محيطة بهم ،

---

(١) الأنعام : ١٢

(٢) النازعات : ٢٧ ـ ٣٣ وأغطش ليلها : أظلمه

(٣) سبأ : ٨ ـ ٩

وليست بعيدة عنهم بعد الساعة المغيبة في علم الله . ولا يأمن مكر الله الآ القوم الفاسقون[1] .

والتهديد بالأحداث الكونية الضخمة ، أسلوب آخر ـ غير أسلوب الاستدلال واثارة التأمل والتفكر ـ من أساليب القرآن العظيم ، وهو مؤثر وموح للقلب البشري ، وموقظ من الغفلة والضيق والهمود فضلا عن مراعاته ما جبلت عليه النفس البشرية من الحاجة الى الوعد والوعيد .

***

واستدل القرآن الكريم بأحوال النبات على البعث والنشور ، فالنبات له دورات متعاقبة من الحياة : يظهر وينمو ثم يذبل ويضمحل حتى يصبح ذرات متفرقة تختلط بالتراب وتتلاشى ثم يكون موسم يظهر فيه النبات كرة أخرى ، فلماذا لا يكون شأن البشر كذلك مع الفارق ؟ قال تعالى :

ـ ﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ، ثُمَّ نُخْرِجُكُم طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّنْ يُتَوَفَّىٰ وَمِنْكُم مَّنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلاَ يَعْلَمَ مِن بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا ، وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ . ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لاَ رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴾[2] .

ـ ﴿ فَانْظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[3] .

ـ « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ . إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى ، إِنَّه عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[4] .

---

(١) انظر في ظلال القرآن ٦/٦٣٢

(٢) الحج : ٥ ـ ٧ نطفة : مني ، علقة : قطعة دم جامدة . مضغة : قطعة لحم قدر ما يمضغ . هامدة : ميتة يابسة قاحلة . اهتزت : تحركت بالنبات . ربت : ازدادت وانتفخت .

(٣) الروم : ٥٠

(٤) فصّلت : ٣٩ . والارض خاشعة : أي يابسة متطامنة جدبة .

لقد قدم القرآن للمعارضين في البعث حججه الفاصلة في صور مختلفة ، وطرق متنوعة تدور كلها حول محور واحد ، وهي اثبات قدرة الله الباهرة في الانسان والكون . فالانسان وتعاقبه في الخلق ، وتحوله من حال الى حال ، والارض وما تخرجه من نبات كل ذلك آية من آيات قدرته .

ومهما اختلفت هذه الألفاظ ، التي وصفت بها الأرض قبل الانبات ، فانها لا تخرج عن معنى واحد ، هو فقدان الارض معالم الحياة والوجود قبل انزال الماء عليها ، وهو ما عبّر عنه في الآيات (بالهمود) و(الموت) و(الخشوع) .

وقد وصف القرآن هذه العملية ، عملية اخراج النبات من الارض بالماء ، بأنها (آية) . كما هو بينّ في الآيات السالفة الذكر، وهو بذلك يشير الى ما لها من دلالة وبينة على امكان البعث والنشور ، والى هذه القدرة الحكيمة المتصرفة في الكون جميعه ، لا يعجزها شيء في الارض ولا في السماء . تزرع الوجود بعد عدم ، وتبعث الحياة في الاموات والرمم .

ومن الحجج الواردة في القرآن أن الخالق الذي خلق هذا الكون ، وخلق الانسان لأول مرة وأبدعه من غير مثال سابق ، قادر بالطبع أن يخلقه ويعيده مرة أخرى .

قال تعالى :

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ ، قَلْ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ؟ قَلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ، وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيْمٌ . الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَاراً . فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ ﴾[1] .

قال الزمخشري : « ثم ذكر من بدائع خلقه انقداح النار من الشجر الأخضر مع مضادة النار الماء وانطفائها به وهي الزناد التي توري بها الأعراب وأكثرها من المرخ والعفار[*] وفي أمثالهم : في كل شجر نار واستمجد المرخ والعفار ، يقطع الرجل

(١) يس : ٧٨ ـ ٨٠

(*) المرخ والعفار : شجرتان يستعملها الأعراب في اشعال النار .

منهما غصنين مثل السواكين وهما خضراوان يقطر منهما الماء فيسحق المرخ وهو ذكر ، على العفار وهي أنثى فتنقدح بإذْن الله »[1] .

وفي موضع آخر كرر القرآن هذا المعنى وهذا الاستدلال في سورة الواقعة فقال :

﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ . أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ . نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً ومتاعاً لِلْمُقْوِينَ﴾[2] .

***

ولقد جمع القرآن بين مشاهد متعددة متفاوتة في بعض نصوصه للدلالة على البعث ، وذلك حين أنكره المشركون وكذبوا به ، ورأوه شيئا بعيدا ، فاضطربوا في ذلك أي اضطراب . واذا أسلموا أنفسهم لأهوائهم ووساوسهم ، راح القرآن يعرض آياته الدالة على امكان ذلك في تلك المشاهد التي يرون آثارها العظيمة في السماء وزينتها ، والأرض ورواسيها ، وصنوف نباتها ، وأشجارها ، والمطر المبارك الذي ينزل من السماء فينبت به الشجر وتحيا به الأرض بعد موتها ، وليس البعث بأبعد من ذلك ، ويتجلى ذلك في قوله تعالى :

﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُم مُّنْذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ . أَإِذا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ . قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ ٱلأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ. بَلْ

---

(١) الكشاف ٣/ ٣٣٢ . وانظر المنتخب في تفسير القرآن الكريم ص ٦٥٩ حيث علق على هذه الآية بقوله : « ان طاقة الشمس تنتقل الى جسم النبات بعملية التمثيل الضوئي ، اذ تمتص خلاياه المحتوية على المادة الخضراء في النبات (الكلوروفيل) ثاني اكسيد الكربون من الجو ، ويتفاعل هذا الغاز مع الماء الذي يمتصه النبات تنتج المواد (الكربوهيدراتية) بتأثير الطاقة المستمدة من ضوء الشمس ومن ثم يتكون الخشب الذي يتركب آساسيا من مركبات كيمائية محتوية على (الكربون والهيدروجين والاكسوجين) ، ومن هذا الخشب يتكون الفحم النباتي المستعمل في الوقود ، اذ باحراق هذا الفحم تنطلق الطاقة المدخرة فيه وينتفع بها في الطهي والتدفئة والانارة وتسخين الماء وفي كثير من الأغراض . وما الفحم الحجري الخشبي الا نباتات وأشجار نشأت ونمت على النحو السابق وكبرت بفعل عملية التمثيل الضوئي أو الكلوروفيل . ثم دفنت بطريقة ما وتحولت بالتحليل الجزئي بعد مضي ملايين السنين الى الفحم المذكور تحت تأثير العوامل الجيولوجية كالحرارة او الضغط وغيرها . ويجب أن يلاحظ ان لفظ الاخضرار في الآية ووصف الشجر بهذا اللون لم يكن عفوا ، وانما هو اشارة الى مادة الكلوروفيل الأخضر اللازمة لتمثيل غاز ثاني أكسيد الكربون » الأصح ان يقال دفنت .

(٢) الواقعة : ٧١ - ٧٣ . تورون : توقدون . المقوين : النازلين بالقواء وهي المفازة أرض ليس بها أحد .

كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيْجٍ(*) . أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُم كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَالَهَا مِنْ فُرُوجٍ . وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيْهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيْهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيْجٍ . تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيْبٍ . وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكاً فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيْدِ . وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَّضِيْدٌ(**) رِزْقاً لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴾(١) .

ومشهد الخلق والإنبات في الأرض وإحياء البلد الميت بالماء النازل من السماء ، مشهد له دلالته العميقة الناطقة بالقدرة على الإحياء والإخراج ، وقد تكرر في مناسبات مماثلة . قال تعالى :

﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ، كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾(٢) ﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴾(٣) .

***

واستدل القرآن الكريم بظاهرة (اختلاف الليل والنهار) على البعث ؛ لما في هذه الظاهرة الكونية المتكررة من تشابه بالموت والحياة ، قال تعالى :

﴿ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ . وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلاَفُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ؟ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الأَوَّلُونَ . قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ؟ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ ، إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾(٤) .

فالحياة والموت حادثان يقعان في كل لحظة ، والذي بث الحياة في الجسم الميت ، هو الذي يعرف سرّها ، ويملك أن يهبها ويستردها . واختلاف الليل والنهار غير

(*) أمر مريج : مضطرب
(**) طليع نضيد : ثمر متراكم بعضه فوق بعض .
(١) ق : ٢ - ١١
(٢) الأعراف : ٥٧
(٣) فاطر : ٩
(٤) المؤمنون : ٧٩ - ٨٣

بعيد عن اختلاف الموت والحياة ، كلاهما سنة كونية ، الأولى في الأفلاك ، والثانية في الأجساد . وكما ينزع الله الحياة من الحي فيعتم جسده ويهمد ، وكذلك ينزع الضوء من الأرض فتعتم وتسكن . . . ثم تكون حياة ويكون ضياء ، يختلف هذا على ذاك ، بلا فتور ولا انقطاع الا أن يشاء الله . . . (أفلا تعقلون ؟) وتدركون - يا منكري البعث - ما في هذا كله من دلائل على الخالق المدبر ، المالك وحده لتصريف الكون والحياة ؟ [1] .

وفي مقام آخر يستدل القرآن على البعث ، بما في الليل من طمأنينة وهدوء وراحة بعد عناء النهار وكده ، وبما في النهار من نور وضوء يجد فيه الناس طريقهم الى أرزاقهم ومعايشهم ، وسبيلهم الى خيرهم وصلاحهم[2] . فهو اذ يلفت الى ظلمة الليل الساكن ، والنهار المبصر ، انما يلفت الى ما يشبه الموت والحياة في ناموس الكون ، وقانونها ويجعل ذلك دليلا على قدرة الله على البعث والنشور . فثواء الأموات ، فترة الموت ، في قبورهم ، ليس ببعيد عن انتشارهم يوم البعث وحسابهم ، فالصورة الحسية المتجلية في جعل الليل سكونا والنهار نشورا ، تنبىء عن تلك الصورة الغيبية في أمانة الناس ثم نشرهم وحشرهم بعد ذلك . ويتجلّ ذلك في قوله تعالى :

﴿ أَلَمْ يَرَوا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً ؟ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ . وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ - إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللَّهُ - وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِيْنَ . وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ، صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ، إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾[3].

وفي موضع آخر يعرض القرآن عجائب الكون الدالة على كمال قدرة الخالق وحكمته وتدبيره ، الناطقة بأن من مقتضيات هذه الحكمة أن يكون هناك بعث لحساب الناس . وأن يكون من مقتضيات تلك القدرة أن تمتد الى بعث الناس

---

(١) انظر في ظلال القرآن ٦/ ٤٢

(٢) انظر مختصر تفسير ابن كثير ٢/ ٦٨٤ تحقيق الصابوني ، دار القرآن الكريم بالكويت

(٣) النمل : ٨٦ - ٨٨

ورجعهم الى الخالق الذي بدأهم وبدأ الكون كله قبلهم وسخره لهم ليبلوهـم فيما آتاهم . يتجلى ذلك في قوله تعالى :

﴿اللّـهُ الَّذي رَفَعَ السَّموَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ، ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ، وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ، كُلٌ يَجْرِي لأجَلٍ مُسَمَّىً، يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ . وَهُوَ الَّذي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً ، وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ، يُغْشَى اللَّيلَ النَّهار ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَومٍ يَتَفَكَّرُون . وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ، وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ، وَنَخِيلٌ، صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ ، يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ . إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَومٍ يَعْقِلُونَ . وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَولُهُم أَئِذَا كُنَّا تُرَاباً أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ! أُولَئِكَ الَّذِيْنَ كَفَرُوا بِرَبِّهِم ، وأولَئِكَ الأَغْلاَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ ، وأولئك أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيْهَا خَالِدُونَ﴾[1] .

تلفت الآيات الكريمة الانظار الى تدبـير مشاهـد كون الله العجيب في سمائـه وأرضه ، وشمسه وقمره ، وليله ، ونهاره ، وجباله وأنهـاره ، وجنـات الاعنـاب والنخيل والزرع التي تكون في أراض متجاورة ، والتي يكون من شجرها ما يمتّ الى اصل واحد ويسقى الجميع بماء واحد ويتفاضل مع ذلك في الأكل والطعم .

وهذه القدرة المتجلية في مشاهد السماء والأرض تقوّي الدليل ، وتعزز البيّنة ، على ان الله قادر على أن يبعث الانسان الذي ليس ايجاده بأبعد من ايجاد هذه العناصر الكثيرة المختلفة . « وان تعجب يا محمد من قولهم في انكار البعث فقولهم عجيب حقيق بأن يتعجب منه ، لأنّ من قدر على انشاء ما عدد عليك من الفطر العظيمة ولم يعي بخلقهن كانت الاعادة أهون شيء عليه وأيسره ، فكان انكارهم اعجوبة من الأعاجيب »[2] .

وهكذا عرض القرآن الحياة الآخرة عرضا يقبله العقل ، ودعا الى الايمان بهـا

---

(١) الرعد : ٢ ـ ٥

(٢) تفسير الزمخشري ٢/ ٣٤٩

دعوة تقنع غير المتكابر المتعنت وصاحب الهوى والغرض ، فليس الدافع الى انكار الحياة الآخرة دافعا عقليا محضا ، اذ ليس من المستحيل أن يكون لهذا المخلوق الكريم ـ الانسان ـ حياة ثانية مرتقبة ، يكمل فيها الجزاء ، ويتعلق بها القلب ، وتحسب حسابها النفس ويقيم الانسان نشاطه في هذه الارض على أساس ما ينتظره هناك .

الفصل الثاني

الجوانب الإنسانية

أولاً - بين الإنسان والكون

١- تحبيب الكون للإنسان
٢- منزلة الانسان في الكون
٣- الاحساس الجمالي

ثانياً - الترغيب والترهيب

الترغيب بالنعم الدنيوية والأخروية
الترهيب بالعذاب الدنيوي والأخروي

الجوانب الانسانية

اتخذ القرآن الكريم من المشاهد الكونية والأخروية محورا لتصحيح فكري على نطاق واسع حين حول الفكر الانساني من العقائد الحائرة الى الحقيقة المطمئنة ؛ وكان اهتمامه بحقيقة العلاقة بين الله والكون من أخطر ما اهتم به في هذا المجال فضلا عن اهتمامه بحقيقة العلاقة بين الانسان والكون .

وفي الفصل الاول من هذا الباب تبين لنا كيف اتخذ القرآن من المشاهد دلائل على الايمان بالله ، والكتاب ، وبالنبوة ، والحياة الآخرة .

ولعلّ أبرز ما أكده القرآن الكريم أن عناصر الكون كلّها مخلوقة وحادثة[1] ، وأن الله سخرها لمنفعة الانسان . والتسخير في اللغة « سياقة الى الغرض المختص قهرا . . . فالمسخّر هو المقيض للفعل »[2] . وقد تردد في القرآن الحديث عن تسخير الشمس والقمر والنجوم ، مع تسخير عناصر الكون الأخرى ، من مثل قوله تعالى :

ـ ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ، أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾[3] .

---

(١) عبّر القرآن عن هذا المفهوم بالفاظ صريحة كالخلق والابداع والفطر والجعل والقضاء وكلها تنتهي الى معنى الايجاد والتكوين والانشاء .

(٢) مفردات الراغب الاصفهاني مادة سخر .

(٣) الأعراف : ٥٤

ـ ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾[1] .

ـ ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ، وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[2] .

ـ ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾[3] .

فقد سخّر الله للانسان ما في السموات ، وجعل في مقدرتـه الانتفـاع بشعـاع الشمس ونور القمر وهدى النجوم ، وبالمطر والهواء والطير السابح فيه . وسخر له ما في الارض . وهذا أظهر وأيسر ملاحظة وتدبرا . فقد أقامه خليفة في هذا الملك الطويل العريض ، ومكنه من كل ما تذخر به الارض من كنوز . ومنه ما هو ظاهر ومنه ما هو مستتر . ومنه ما يعرفه الانسان ومنه ما لا يدرك الا آثاره ، ومنه ما لم يعرفه اصلا من أسرار القوى التي ينتفع بها دون أن يدري . وانه لمغمور في كل لحظة من لحظات الليل والنهار بنعمة الله السابغة الوافرة التي لا يدرك مداها ، ولا يحصي أنماطها . . . وقد قرن القرآن الكريم هذا التسخير أحيانا « بالجري » الذي هو تعبير عن السير بسرعة وواضح أن ذلك فيه استدامة هذا التسخير ، حين يكون الفعل مضارعا ، وهذا ما نجده فعلا في قوله تعالى : (وسخّر الشّمس والقمر كلّ يجري لأجل مسمّى) . . . والمسخر اذا كان مسرعا فيما سخّر له كان فعله أدلّ من التعبير عن قهره وعبوديته .

ولقد دعا الله الانسان الى الكشف عن أسرار هذا الكون بما أودعه من سلطان العقل ليعرف جلال الله في عظمة ملكه ، وعظيم قدرته في ابداع خلقه ، وحكمته في بديع صنعه ، ورحمته في لطيف تدبيره ، فقال عز شأنه :

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾[4] .

---

(١) ابراهيم : ٣٣

(٢) النحل : ١٢

(٣) لقمان : ٢٩ . وانظر الآيات التالية التي ورد فيها تسخير الشمس والقمر : الرعد : ٢ . العنكبوت : ٣١ . فاطر : ١٣ . الزمر : ٥ .

(٤) البقرة : ٢٩

- ﴿ أَلَمْ تَرَوا أَنَّ اللّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُم نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللّهِ بِغَيرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدَىً وَلاَ كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴾(١) .

- ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِنهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآَيَاتٍ لِقَومٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾(٢) .

وفي قوله تعالى (خلق لكم) و(سخر لكم) نص لا يحتمل التأويل على أن الله تعالى ينبه العقل البشري في كافة أفراده بأن خلق هذا الكون بجميع آياته السماوية والأرضية ، وتسخير ما فيه من عناصر الحياة ومظاهر النعم انما كان لأجل الأنسان الذي كرّمه الله تعالى بخصيصة العقل وفضله به على سائر ما حواه الوجود من مخلوقات لينتفع به ، ولا شك أن الانتفاع بأي من هذه المخلوقات التي امتن الله بخلقها وتسخيرها للانسان ، يقتضي أن يتعرف الانسان فائدة المخلوقات ولا يتحقق له ذلك الاّ بعد معرفة حقائقها تفصيلا ، لأن معرفة الحقيقة يرشد الى مواطن الإنتفاع ، وهذه مهمة تستنفد أعمار الأحياء في هذه الحياة ، فالبحث عن حقائق الموجودات سماوية أو ارضية ، هو في نظر القرآن ، مهمة الانسان ما دام على ظهر هذه الأرض ، لأنه وسيلة الى استخلاص أكبر قسط من المنافع المادية والروحية التي يحيا بها حياة طيبة يغمره فيها الايمان بجلال الخلاّق العظيم .

***

---

(١) لقمان : ٢٠

(٢) الجاثية : ١٣

أولاً : بين الإنسان والكون

الكون كله باجوائه وعناصره وكائناته مسرح ضخم لنشاط الانسان ، ولقد لفت القرآن حسّ الانسان وقلبه وعقله للنظر الى ما في السموات والأرض لعله ينبض ويتحرك ، ويتلقى ويستجيب قال تعالى :

﴿ قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ ، وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾[1] .

---

(١) يونس : ١٠١

- ١ -

تحبيب الكون للإنسان

جعل القرآن بين الانسان والكون لغة خفية قوامها الانسجام والألفة ، والمودة والرحمة ، وبذلك حبّب هذا الكون للانسان :

فعلاقة السماء بالأرض علاقة عطاء وتفضّل وتكامل . فالماء ينـزل من السماء فيكون رحمة ونعمة تهتز له الأرض ، وتستجيب فاذا هي تربو ، وتنبت من كل صنف ناضر بهيج :

﴿ وَهُوَالَّذي أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ مَاءً ، فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كل شَيءٍ، فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضراً نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِباً ، وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ ، وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ ، وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ، انْظُرُوا إِلى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ . إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[١] .

﴿ وتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً ، فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ، وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾[٢] .

والهمود هو فقدان الحياة[٣] . وهـكذا تكون الأرض قبـل الماء ، وهـو العنصر الأصيل في الحياة والأحياء . فاذا نزل عليها الماء (اهتـزت وربـت) وهـي حركة عجيبة سجلها القرآن قبل ان تسجّلها الملاحظة العلمية بمئات الأعـوام ، فالتربـة الجافة حين ينزل عليها الماء تتحرك حركة اهتزاز وهي تتشرب الماء وتتفتح فتربو ثم

(١) الانعام : ٩٩
(٢) الحج : ٥
(٣) انظر في هذا البحث ص ٧٧

تتفتح بالحياة عن النبات من كل زوج بهيج . وهل أبهج من الحياة وهي تتفتح بعد الكمون ، وتنتفض بعد الهمود ؟ [١] .

والنجوم في كبد السماء مصابيح هداية للبشر في متاهات البر والبحر ، قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾[٢]. فالاهتداء بالنجوم في ظلمات البر والبحر يحتاج الى علم بمسالكها ودورانها ومواقعها ومداراتها . . كما يحتاج الى قوم يعلمون دلالة هذا كله على الصانع العزيز الحكيم . . . فالاهتداء سواء أكان في الظلمات الحسية أم ظلمات التصور والفكر صورة تتجلّى من ورائها يد المبدع ، وتقديره ، ورحمته ، وتدبيره . صورة مؤثرة في العقل والقلب ، موحية للبصيرة والوعي ، دافعة الى التدبر والتذكر ، واستخدام العلم والمعرفة للوصول الى الحقيقة الكبرى المتناسقة . . . والذين يستخدمون النجوم للاهتداء الحسي ، ثم لا يصلون ما بين دلالتها ومبدعها ، هم قوم لم يهتدوا بها تلك الهداية الكبرى ، وهم يقطعون بين الكون وخالقه ، وبين آيات هذا الكون ودلالتها على المبدع العظيم [٣] .

هكذا تتجلّى الصلة الوثيقة بين السماء والأرض والتي قوامها المنفعة والبركة والخير .

ومن أجل الانسان مهّد الله الأرض ، وجعلها مستقرة ومتاعة ، وجعل ما فيها من الخيرات نعمة ورزقا ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا ، وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا ، وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ، فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى . كُلُوا ، وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى ﴾[٤] « هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا(*) ، فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ ، وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾[٥] .

والقرآن لا يعبر « بالرزق » عن شيء الا وذلك الشيء مما يحسّ ويلذ ، وهو كثير

---

(١) انظر في ظلال القرآن ٥/ ٥٨٢
(٢) الأنعام : ٩٧
(٣) انظر في ظلال القرآن ٣/ ٣٢١ وما بعدها
(٤) طه : ٥٣ ـ ٥٤
(*) ذلولا : مذللة للسير فيها واستخراج كنوزها
(٥) الملك : ١٥

في القرآن الكريم ، وقد حفلت سورة الرحمن خاصّة بمشاهد من النعم الأرضية التي تبهج النفوس ، وتؤثر في الأحاسيس ، في عبارات رقيقة مناسبة لذلك كلّه ، وهي تدلّ على ما جعل الله في الأرض من مظاهر النعم والمنافع للعباد ، مما سخر لمنفعتهم وخدمتهم ، فمما جاء في سورة الرحمن قوله تعالى :

-﴿ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ ، فِيْهَا فَاكِهَةٌ ، وَالنَّخْلُ ذَاتُ ٱلأَكْمَامِ ، والْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ . فَبِأَيِّ آلآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾[1] .

- ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ، بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ . فَبِأَيِّ آلآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ، يَخْرُجُ مِنْهُمَا الُّلؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ . فَبِأَيِّ آلآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشآتُ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ . فَبِأَيِّ آلآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾[2] .

وانتفاع الانسان بما في الأرض من النعم تكريم له واعلاء لشأنه ، واظهار لمعنى خلافته في الأرض قال تبارك وتعالى :

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُم عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾[3] .

« ولقد كرمنا بني آدم بحسن الصورة والمزاج الأعدل واعتدال القامة والتمييز بالعقل والإفهام بالنطق والاشارة والخط والهدى الى أسباب المعاش والمعاد والتسلط على ما في الأرض والتمكن من الصناعات وانسياق الأسباب العلوية والسفلية الى ما يعود عليهم بالمنافع الى غير ذلك مما يقف الحصر دون احصائه »[4] .

وفي تذليل الأرض ، وتمكين الانسان من الانتفاع بها ، ما مهد له سبل الحياة عليها ، والانتفاع الكامل بها ، وتلك نعمة كبرى قال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُم فِي ٱلْأَرْضِ ، وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ ، قَلِيْلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴾[5] .

(1) الرحمن : ١٠ - ١٣
(2) نفسها : ١٩ - ٢٠
(3) الاسراء : ٧٠
(4) تفسير البيضاوي ص ٣٨٠
(5) الأعراف : ١٠

ان الله خالق الأرض وخالق الناس ، هو الذي مكّن لهـذا الجنس البشري في الارض . وهو الذي أودع الأرض هذه الخصائص والموافقات الكثيرة التـي تسمـح بحياة الجنس البشري ، وتقوته ، وتعوله ، بما فيها من أسباب الرزق والمعايش . . . هو الذي جعلها مقرا صالحا لنشأته بجوها وتركيبها وحجمها وبعدها عن الشمس والقمر ودورتها حول الشمس ، وميلها على محورها ، وسرعة دورانها . . . الى آخر هذه الموافقات التـي تسمـح بحياة البشر عليهـا . وهـو الـذي أودع من الأقـوات والأرزاق ومن القوى والطاقات ما يسمح بنشأة هذا الجنس وبنمو هذه الحياة ورقيها معا . . وهو الذي جعل هذا الجنس البشري سيد مخلوقات هذه الأرض ، قادرا على تطويعها واستخدامها ، بما أودعه الله من خصائص واستعدادات للتعرف الى بعض نواميس هذا الكون وتسخيرها في حاجته . . [1] .

لقد كانت الوشيجة التي تربط عناصر الكون بالانسـان في المفهومـات الـوثنية والإغريقية والرومانية مبنية على أساس الصراع بين عناصر الكون والانسـان وكان على الانسان في معركته مع الكون أن (يقهر الطبيعة) ولكن القرآن قرّب ما بـين الانسان والكون ورفض مفهوم العداوة القائم بين الانسان والكون بأن أوضح أن الله هو الذي خلق الكون ، وهو الذي خلق الانسان . وقد اقتضت مشيئته وحكمته أن يجعل طبيعة هذا الكون بحيث تسمح بنشأة هذا الانسان ، وأودع الانسان من الاستعـدادات ما يسمـح له بالتعـرف الى بعض نواميس الـكون واستخدامهـا في حاجته . . وهذا التناسق الملحوظ هو الجـدير بصنعـة الله الـذي أحسـن كل شيء خلقه . ولم يجعل خلائقه متعادية متدابرة ، بل جعل الانسان يعيش في كون مأنوس صديق ، وفي رعاية قوة حكيمة مدبرة . . يعيش مطمئن القلب ، ينهض بالخلافة عن الله في الأرض اطمئنان الواثق بأنه معان على الخلافة ، ويتعامل مع الكون بروح المودة والصداقة . . ويتحرك لمواجهة كون صديق مكن الله له فيه ، وجعل له فيه أرزاقا ومعايش ، ويسرّ له المعرفة ، وجعل نواميس هذا الكون موافقة لوجود هذا الانسان [2] .

---

(١) انظر في ظلال القرآن ٣ / ٤٧١

(٢) انظر في ظلال القرآن ٣/ ٤٧٢ ـ ٤٨٤

ومن التوافق بين نواميس الكون ووجود هذا الانسان مشاهد الليل والنهـار ، وقد حببها القرآن الكريم الى الانسان ولم يجعلهما متنافرين متصارعين ، أو قوتين مهلكتين تتعاقبان على فناء الانسان ، بل بينّ بجلاء أن هذا التعاقب انما هو لمنفعة الانسان وخيره في هذه الحياة قال تعالى :

﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ، وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً ﴾ [1].

فالليل والنهار آيتان كونيتان كبيرتان تشيان بدقة الناموس الكوني الذي لا يصيبه الخلل مرة ، ولا يدركه التعطيل مرة واحدة ، ولا يـني يعمل دائبا بالليل والنهار . . فالليل للراحة والسكون والجمام ، والنهار للسعي والكسب والقيام ، ومن المخالفة بين الليل والنهار يعلم البشر عدد السنين ، ويعلمون حساب المواعيد والفصـول والمعاملات . (وكل شيء فصلناه تفصيلا) فليس شيء وليس أمر في هذا الوجود متروكا للمصادفة العمياء . ودقة الناموس الذي يصرف الليل والنهار ناطقة بدقـة التدبير والتفصيل ، وهي عليه شاهد ودليل[2] .

ومشهد الليل الساكن ، ومشهد النهار المبصر ، خليقان أن يؤكدا تدبير خلق الله لهذا الكون مناسبا لحياة (الانسان) لا مقاومـا لهـا ولا حربـا عليهـا ولا معارضـا لوجودها أو استمرارها قال تعالى :

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَـارَ مُبْصِراً ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾[3] .

وقـد قرّب القـرآن الليل من الانسـان حتـى جعلـه أقـرب ما يكون اليه من ضروريات حياته ، فوصفه بأنه (لباس) فقال :

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاساً ،وَالنَّومَ سُبَاتاً ، وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُوراً ﴾[4] .

---

(١) الاسراء : ١٢
(٢) انظر في ظلال القرآن ٥/ ٣٤٠ وما بعدها
(٣) يونس ٦٧
(٤) الفرقان : ٤٧

ولا نريد أن نكرر ما قلناه عن مشهد الليل وما فيه من نوم وسبات ، والنهار وما فيه من حركة وانبعاث ، وانما أردنا ان نجلو جانبا من علاقة الانسان بهذا الكون الحبيب وما فيها توافق وتناسق .

وحبب القرآن الماء الى الانسان وقرنه بالنعمة والرزق والمنفعة والرحمة قال تعالى :

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ، وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ، فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ ، وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ، وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ . وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ، وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ . وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ، وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾[1] .

فهذا الكون الهائل بكل ما فيه من نعم مسخر للانسان : السموات ينزل منها الماء ، والارض تتلقاه ، والثمرات تخرج من بينها . والبحر تجري فيه الفلك بأمر الله مسخرة . والأنهار تجري بالحياة والارزاق في مصلحة الانسان . والشمس والقمر دائبان لا يفتران . والليل والنهار يتعاقبان . . كل هذه نعم مسخّرة لهذا الانسان ، إما مباشرة ، واما بموافقة نواميسها لحياة الانسان وحاجاته ، وبذا يعقد القرآن صلة الصداقة بين الكون والانسان . صداقة الصدور عن الله ، وصداقة الاحساس بتسخير الكون لمنفعة الانسان .

ومن مثل اظهار نعمة الماء في القرآن ، بشمولها الانسان ، وما يتصل بحياته من نبات وحيوان قوله تعالى :

﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ، لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ ، وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ(*) . يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[2] .

والماء ينزل من السماء وفق النواميس التي خلقها الله في هذا الكون والتي تدبر

---

(١) ابراهيم : ٣٢ - ٣٤ (*) فيه تسيمون : فيه ترعون دوابكم (٢) النحل : ١٠ - ١١

حركاته ، وتنشأ نتائجها وفق ارادة الخالق وتدبيره . هذا الماء يذكر هنا نعمة من نعم الله كونه شرابا لبني الانسان ، وكونه سببا في الشجر الذي ترعى فيه دوابه ، وكونه سببا في الشجر الذي يجد فيه طعامه وفاكهته وكثيرا من حاجاته .

والشجر نعمة ورزق ، وقد فصّل القرآن مظاهر نعمة الشجر فبينّ أن له جانبين ، جانبا ماديا ، وجانبا معنويا ، فالجانب المادي في كونه طعاما للانسان يواصل به وجوده في الحياة ، وكونه طعاما لما هو في حوزة الانسان من الحيوان ، يقتات به ، ويعيش عليه ، فالإنعام على هذا الحيوان الذي سخّر لنفع الانسان انما هو إنعام على الانسان نفسه قال تعالى :

﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا ، وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا ، وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى . كُلُوا وارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى ﴾[1] .

أما المنفعة المعنوية ، فتتجلى في أنه زينة للانسان ، ولنا عود لتفصيل القول في هذا الموضوع ان شاء الله .

ووثق القرآن الصلة بين الانسان ونعمة الماء ، فراح يقربها الى نفسه بالأوصاف الدالة على المنفعة والخير . فالبحر بكل ما فيه نعمة ورحمة ومنفعة ، رحمة حين يحمل الانسان من مكان الى مكان ، بالفلك المواخر فيه كالأعلام ، ورحمة حين يجد فيه طعاما شهيا ولحما طريا ، وزينة ، وحلية من اللؤلؤ والمرجان وغيرهما من الأحجار الكريمة . . . فالقرآن يقول مثلا :

﴿ رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً ﴾[2] .

ثم راح القرآن يعرض للحس مظاهر تلك المنفعة في البحر ، فالفلك تجري فيه بما ينفع الناس (مسخرة) بأمر الله ، وقد جعل هذا التسخير منوطا بقدرة الله وحده فقال :

---

(١) طه : ٥٣ ـ ٥٤

(٢) الاسراء : ٦٦

﴿ اللّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيْهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[1].

قال الزمخشري : « (وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ) : بالتجارة أو بالغوص على اللؤلؤ والمرجان واستخراج اللحم الطري ، وغير ذلك من منافع البحر »[2] فالانسان محوط برعاية الله ـ سبحانه ـ الذي يتيح له أن يسخّر عناصر الكون الهائلة ، وينتفع بها في شتى الوجوه . وذلك عندما يهتدي الى طرف من سر الناموس الالهي الذي يحكمها ، والذي تسير وفقه ولا تعصيه . . والبحر أحد عناصر الكون التي سخرها الله للانسان ، فهداه الى شيء من سر تكوينه وخصائصه ومكنه من الانتفاع به .

وقد تكرر تسخير البحر في القرآن في ثلاث آيات ، منها الآية التي مرت ، والآيتان الأخريان قوله تعالى :

﴿ وَسَخَّرَ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ ﴾[3].

وقوله : ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً ، وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ، وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيْهِ ، وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ، وَلَعَلَّكُم تَشْكُرُونَ »[4] .

واذا كان البحر في التعبير القرآني (يمّا) « واشتقاقه من التيمم لأن المستنفعين به يقصدونه »[5] ، وماء السماء غيثا لأن فيه اغاثة الناس من القحط والجدب ، فان الرياح مبشرات بالرحمة والخير والمنفعة غالبا ، فاذا ما ذكرت مقرنة بالعذاب فانما يكون ذلك في الأغلب عند الاخبار عن أحوال الأمم الماضية التي كفرت للتذكير والاعتبار .

ومن مثل ذكر الرياح الدّال على مفهوم الخير والمنفعة وصفها بأنها (بشرى) بين

---

(١) الجاثية : ١٢

(٢) الكشاف ٣/ ٥١٠

(٣) ابراهيم : ٣٢

(٤) النحل : ١٤

(٥) تفسير الزمخشري ٢/ ١٠٩ « فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين » ـ الأعراف : ١٣٦

يدي رحمة الله ، وشفعها بانزال الماء الطاهر من السماء اذ هي السبب في تحريك السحاب وسوقه من بلد الى بلد ، وانزال هذه النعمة السماوية ـ قوله تعالى :

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً ﴾[١].

وقد فصّل القرآن آثار هذه البشرى في موضع آخر منه ، وبينّ أنها نعمة من السماء ، حين ينزل الغيث ، ونعمة في الأرض حين تجري الفلك في البحر بأمره ، وتخلو الأرض مما بها من أوضار وعفونة[٢] ، فقال :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ ، وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ ، وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ ، وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[٣].

وتصريف الرياح آية من آيات الله ، وبيّنة من بيناته ، ونعمة من نعمه ، لأن في هذا التصريف تحقيق الفائدة والرحمة التي جعلها الله فيها[٤] قال تعالى :

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[٥].

وقد تكرر ذكر الرياح في القرآن الكريم ، بما يحقق المنفعة ويدلّ على النعمة والرحمة ، في آيات أخر غير الآيات التي مرت ، فمن ذلك قوله تعالى :

﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾[٦] .

---

(١) الفرقان : ٤٨

(٢) انظر تفسير الزمخشري ٣/ ٢٢٥

(٣) الروم : ٤٦

(٤) انظر مبحث تصريف الرياح وتسخير السحاب من الفصل الثالث ـ الباب الاول

(٥) البقرة : ١٦٤

(٦) الحجر : ٢٢

﴿ اللّهُ الَّذي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَيَبْسُطُهُ فِي السَّماءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسفاً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلاَلِهِ ﴾[1] .

-﴿ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ . وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ . وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللّهُ مِنَ السَّماءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، وَتَصرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[2] .

***

---

(١) الروم : ٤٨

(٢) الجاثية : ٣ ـ ٥

- ٢ -

منزلة الانسان في الكون

ما زال الانسان ـ مذ وجد على وجه الكرة الارضية ـ مأخوذا بسوء الفهم عن نفسه ، يميل حينا الى جانب الإفراط فيظن أنه أكبر قوة في الكون وينادي ﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾[١] و﴿ أَنَا رَبُّكُمُ ٱلأَعْلَىٰ ﴾[٢] ، ويتحول الى القهر والجبروت والبطش والظلم والشر والطغيان . . ويميل حينا الى جانب التفريط فيظن أنه أدنى وأرذل كائن في العالم فيطأطىء رأسه امام كل شجر أو حجر أو نهر أو جبل أو حيوان ولا يرى لنفسه السلامة الاّ في أن يسجد للشمس والقمر والنجوم والهواء والنار والبرق والغمام وما اليها من الموجودات التي يحُس فيها شيئا من القوة أو يحُس الخوف منها .

والقرآن يبينّ منزلة الانسان في الكون فيقرر أن عناصر الكون لا تستوي والانسان في المنزلة ، ولا ترقى عليها أيضا ، وانما هي دونه في سلم الرقي الكوني . وهي خاضعة له ، مسخرة لمنفعته ، لا فرق في ذلك بين الحيوان الذي سخر لحمله من مكان الى مكان ، والنبات الذي جعل له فاكهة وطعاما ، وبهجة وُزينة .

والموجودات الكونية ليست الا مظهرا من مظاهر تكريم هذا الانسان وإعلاء شأنه وإشعاره برئاسته لهذا العالم المحسوس ، قال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾[٣]

---

(١) فصّلت : ١٥
(٢) النازعات : ٢٤
(٣) الاسراء : ٧٠

ولقد سبق[1] أن بيّنا أن الله كرّم بني آدم بحسن القوام والنطق وتخير الأشياء ، وحملهم في البر على الدواب ، وفي البحر على السفن ، ورزقهم من المستلذات ، وفضلهم على كثير من المخلوقات بالعقل والتفكير . فان خرج الانسان عن طريق الخير ، ولم يحكم العقل الذي وهبه الله اياه ، في معرفة الحق ، والأخذ به والسير في طريقه ، كان عند ذلك (كالبهيمة) التي عدمت العقل والتمييز ، وحرمت الادراك والتفكير ، وصارت تحكمها غريزتها التي لا تفرق بين النافع والضار : قال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُم قُلُوبٌ لاَ يَفْقَهُونَ بِهَا ، وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا ، وَلَهُم آذَانٌ لاَ يَسْمَعُونَ بِهَا ،أُولئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ . أُولئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾[2] .

و﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ؟ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾[3] .

فالذين يغفلون عما حولهم من آيات الله في الكون وفي الحياة ، فلا يرون فيها يد الله . . اولئك كالأنعام بل أضل . . فللأنعام استعدادات فطرية تهديها . أما الجن والأنس فقد زودوا بالقلب الواعي والعين المبصرة والأذن الملتقطة . فاذا لم يفتحوا قلوبهم وأبصارهم وأسماعهم ليدركوا ، واذا مروا بالحياة غافلين لا تلتقط قلوبهم معانيها وغاياتها ؛ ولا تلتقط أعينهم مشاهدها ودلالاتها ؛ ولا تلتقط آذانهم ايقاعاتها وايحاءاتها . . فانهم يكونون أضل من الأنعام الموكولة الى استعداداتها الفطرية[4] .

وكمثل للانحراف عن سواء الفطرة ، ونقض لعهد الله المأخوذ عليها ونكوص عن آيات الله بعد رؤيتها والعلم بها . . . ذلك الذي آتاه الله آياته ، فكانت في متناول نظره وفكره ، ولكنه انسلخ منها ، وتعرّى عنها ولصق بالأرض ، واتبع الهوى ، فلم يستمسك بالميثاق الأول ، ولا بالآيات الهادية ، فاستولى عليه الشيطان ، وأمسى مطرودا من حمى الله ، لا يهدأ ولا يطمئن ولا يسكن الى

---

(١) انظر في هذا البحث ص ٩١

(٢) الاعراف : ١٧٩ ، ومعنى ذرأنا : خلقنا أو جعلنا

(٣) الفرقان : ٤٤

(٤) انظر في ظلال القرآن ٣/ ٦٨٤

قرار . . . فمثله كمثل الكلب ، يلهث ان طورد ويلهث ان لم يطارد[1] قال تعالى :

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا ، فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ ، فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ . وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا ، وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ، فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ ، أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ، ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ، فَاقْصُصِ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[2] .

فالآيات الكريمة تحدثنا عن رجل آمن بالله ، وتعلق بآياته في قوة والتصاق ، بعد أن أراه الله هذه الآيات وبصرّه بها ، الا أنه لم يلبث أن انسلخ عنها في هبوط ، كما ينسلخ الجلد عن اللحم ، أو اللحم عن العظم ، وكان مكانه قبل هذه الآيات ممتازا رفيعاً ، حتى اذا انسلخ عنها هبط من ذلك المكان الرفيع ، فاذا هو على صورة فريدة في الضعة . لقد كانت صورة افتراق ذلك الرجل عن آيات الله البينات مقترنة بصورة الكلب ، في أكثر حالاته دلالة على الضعة ، وهي دوام اللهث والاستمرار عليه . . وهذه الصورة ليست مقتصرة على فرد دون آخر ، وان ذكرت أسباب النزول أنها في عالم من علماء بني اسرائيل ، وقيل من الكنعانيين اسمه بلعم بن باعوراء .أوتي من بعض كتب الله فانسلخ منها ، بأن كفر بها ونبذها وراء ظهره[3] ، وانما هي نموذج خالد يتحدى ملابسات الزمان والمكان . وصورة ماثلة لكل من يترك آيات الله في كل أوان .

كذلك رسم القرآن الكريم صورة للكافرين المعرضين عن الحق ؛ فجعلهم كحمر هاربة من أسد هصور فتّاك ، فهي تفرّ في كل اتجاه ، ولا يجتمع لها شمل فقال :

﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ . كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ . فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴾[4] .

---

(١) انظر في ظلال القرآن ٣/ ٦٧٦ ـ ٦٧٧

(٢) الأعراف ١٧٥ ـ ١٧٦ ومعنى انسلخ منها : انحرف عنها ومعنى أخلد الى الارض : لصق بها أو انحط اليها أي اختار الضلال على الهدى .

(٣) انظر تفسير الزمخشري ٢/ ١٣٠ ـ ١٣١

(٤) المدثر : ٤٩ ـ ٥١

« ففي تشبيههم بالحمر مذمة ظاهرة ، وتهجين لحالهم بينّ ، كما في قوله تعالى ـ كمثل الحمار يحمل أسفارا ـ وشهادة عليهم بالبله وقلة العقل ، ولا ترى مثل نفار حمير الوحش واطرادها في العدو اذا رابها رائب ، ولذلك كان أكثر تشبيهات العرب في وصف الإبل وشدة سيرها بالحمر وعدوها اذا وردت ماء فأحست عليه بقانص »[1] .

ونحن نجد للحمار رمزا في القرآن ، وهو التجافي عن الحقّ ، كما في الآية السابقة الذكر ، وعدم فقه الحقّ والانتفاع منه مع قربه ، كما في صفة اليهود ﴿مَثَلُ الَّذِيْنَ حُمِّلُوا التَوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً ، بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِيْنَ كَذَّبُوا بآيَاتِ اللّهِ واللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِيْنَ﴾[2] .

واذا كان الحيوان قد اقترن في مفهوم القرآن بالغفلة والضلال ، وعدم الاعتبار ، وأنه دون الانسان مرتبة ما لم يحد عن الحق ، فان سائر الموجودات الكونية الأخرى في السموات والأرض مسخرة لفائدة الانسان ومتاعه ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي ٱلأَرْضِ جَمِيْعاً مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[3] فالشمس والقمر والنجوم ، والليل والنهار ، والبحار والانهار ، والدواب ، وغيرها مما نعلم ، ومما لا نعلم . . كلّها مخلوقة لله ومسخرة بأمره لنفع الانسان ، وهي أقل منه مرتبة ما لم يحد عن الحقّ كذلك ، وتأليه هذه الموجودات فضلا عن كونه عقيدة سخيفة ، فانه يضع الانسان في منزلة دونها ، مما يحول دون استثمارها ، وحسن الافادة منها ، لمصلحته ودفع ضرره وأذاه .

***

---

(١) تفسير الزمخشري ٤/١٨٨

(٢) الجمعة : ٥

(٣) الجاثية : ١٣

-٣-

الإحساس الجمالي

واذا كانت الصلة ـ التي يعقدها القرآن بين الانسان والكون ـ صلة المحبة والمنفعة على ما سبق بيانه ، فانه من جانب آخر يوجه القلب البشري الى تلمس جمال الكون كله . لأن ادراك جمال الوجود هو أَقْرَب وأَصدق وسيلة لادراك جمال خالق الوجود .

والجمال الكوني سمة بارزة موحية ، تشد القلوب والعواطف اليها . وهو ليس ظلالا مصطنعة باردة ، وانما هو جمال حيّ أصيل يدعو الى التفكر والتأمل ، ويبعث على الانفعال اذ يتجاوب مع الفطرة البشرية ويبعث فيها ألوانا شتى من الاحساسات الناعمة والمشاعر اللطيفة .

وكل صورة أو شكل أو معنى جمالي ، تمر عليه مدة ، يفقد تأثيره في النفوس ، وقد يلقى بعد ذلك اهمالا وصدودا ؛ الاّ الجمال الكوني فلا يمل الانسان أبدا من الاستمتاع ببهائه ، ولا يسأم من النظر الى انواره واشراقاته ، الأمر الذي يدل أن هذا من صنع خلاّق عظيم ، من صفاته أنه تعالى جميل يحب الجمال .

ويحسّ الانسان بجمال الكون لحظة يتجه اليه وكلما اتجه اليه ، ولا ينكر أحدنا أنه كثيرا ما كان جمال الكون طريقه ووسيلته في التخفف من همومه ومشكلاته !!

نظرة الى السماء كافية لرؤ ية زينتها ، ولادراك ان الجمال عنصر أصيل في بناء

هذا الكون ؛ وأن صنعة الصانع فيه بديعة التكوين جميلة التنسيق ، وأن الجمال فيه فطرة عميقة لا عرض سطحي ، وأن تصميمه قائم على جمال التكوين كما هو قائم على كمال الوظيفة سواء بسواء . فكل شيء فيه بقدر ، وكل شيء فيه يؤدي وظيفته بدقة ؛ وهو في مجموعه جميل قال تعالى :

- ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِيْنَ ﴾[1] .

- ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ﴾[2] .

- ﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا ، وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴾[3] .

- ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيْحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِلْشَيَاطِينِ ﴾[4] .

ان تناثر الكواكب والنجوم في السماء مشهد جميل يأخذ بالقلوب ، فهي تتلألأ في أرجائها كأنها أقراص من الماس تلمع في صحراء ، أو كأنها عقود منتظمة مرصعة بالدّر الأبيض الناصع تزين صدر الغادة الحسناء . . . وقد جعلها الله مجموعات متعددة الأشكال والهيئات ، وزين بها السماء ، وجعلها عبرة للمتأملين ، ليستدلوا بها على قدرة مبدعها حين يقفون على دِقَّة تنظيمها وتقديرها[5] .

ودقة التنظيم في بناء السماء يدعو الى العجب العجاب . . فهذا الكون الذي يشمل بلايين البلايين من النجوم ، كلها متحركة لا تفتر عن الحركة لحظة واحدة منذ الأزل السحيق الذي لا يدرك عقل البشرية مداه . . وعن هذه الحركة ينشأ - في أرضنا - الليل والنهار ، والضوء والظل ، والشتاء والصيف ، والخريف والربيع ، والحر والزمهرير ، والمد والجزر . . .[6] .

---

(١) الحجر : ١٦ والبروج النجوم العظام ، واحدها برج ومنها نجوم البروج الاثني عشر المعروفة في علم الفلك . أو هي منازل الكواكب السيارة . وهي في كلتا الحالتين شاهدة بالقدرة وشاهدة بالابداع الجميل .

(٢) الصافات : ٦

(٣) ق : ٦

(٤) الملك : ٥

(٥) انظر المنتخب في تفسير القرآن ص ٣٧٤

(٦) انظر منهج الفن الاسلامي ص ١٢٨ وما بعدها

وهذه السماء ؛ المعلقة في الفضاء بلا عمد ؛ موزونة الحركة ، تدور أجرامها في مداراتها المرسومة لها ، ولا يصطدم فيها نجم بنجم ، وقد جعلها الله زينة وبهجة وجمالا في تناسب أشكالها وحسن أوضاعها (إنا زيّنا السماء الدنيا بزينة الكواكب) .

ويقف الدارسون لنظامها ، المفكرون في حسابها على بعض مظاهر القدرة الالهية في خلقها : انها بناء شامخ مستقر بريء من الخلل والاضطراب ينطق بالحق ، ومع الحقّ ثبات وجمال وكمال ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا ، وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾[1] .

ويقرن الله نعمه المعنوية والمادية التي أسبغها على عباده . . والزينة نعمة معنوية تكرر ذكرها في القرآن الكريم ؛ فلقد زيّن الله السماء والأرض ليتملىّ نظر الانسان بآيات الجمال في كل ما حوله من مشاهد ومناظر .

والأرض كل ما عليها جميل

جبال ووديان ، ومحيطات وبحار ، وجداول وأنهار . . . وما فيها من أبخرة وسحب وأمطار . . وما عليها من نبات وحيوان وطير . . كلها بديعة الجمال .

قال تعالى :

-﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾[2]

-﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً ، فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ، وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾[3] .

- ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا ، وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ ، وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾[4] .

---

(١) تفسير المراغي ١٤/١٢ و٤٣/٢٣ ـ احمد مصطفى المراغي ـ مصطفى البابي الحلبي بمصر ـ الطبعة الثالثة ، ١٣٨٢ هـ ـ ١٩٦٢ م

(٢) الكهف : ٧

(٣) الحج : ٥

(٤) ق : ٧

وزينة الأرض كل ما يجعلها تبدو جميلة في عين الناظر اليها ، وقد زينّها الله بالجبال والأودية والحقول والبساتين والأنهار والينابيع والشيء اذا كان « زينة » أحدث السرور في النفس ، وكذلك اذا كان بهيجا ، فانه لا يعدم اثارة الغبطة والراحة ؛ قال الاصفهاني : « البهجة حسن اللون وظهور السرور فيه . قال عزّ وجل (حدائق ذات بهجة) وقد بهج فهو بهيج ، قال : (وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج) . . . وقد ابتهج بكذا أي سرّ به سرورا بان أثره على وجهه »[1] .

ومنظر الحدائق البهيجة يبعث في القلب السرور والحيوية قال تعالى : ﴿ . . . وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ، أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾[2] . فتأمل الحدائق البهيجة كفيل بإحياء القلوب . وتدبر آثار الإبداع في الحدائق كفيل بتمجيد الصانع الذي أبدع هذا الجمال العجيب . وان تلوين زهرة واحدة وتنسيقها ليعجز عنه أعظم رجال الفنون من البشر . وان تموج الألوان وتداخل الخطوط وتنظيم الوريقات في الزهرة الواحدة ليبدو معجزة تتقاصر دونها عبقرية الفن القديم والحديث . فضلا عن معجزة الحياة النامية في الشجر ـ وهو السرّ الأكبر الذي يعجز عن فهمه البشر ـ[3] .

والبحر مشهد آخر تتحقق فيه منافع الانسان المادية والمعنوية ، وقد جعله الله من جملة ما سخره لنفع الانسان بما فيه من طعام ، ووسيلة تجارية تشق الفلك عبابه ، وزينة تلبي حاسة الجمال .

قال تعالى :

ـ ﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً ، وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ، وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ ، وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[4] .

ـ ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ . وَمِنْ

(١) معجم مفردات الفاظ القرآن ص ٦١
(٢) النمل : ٦٠
(٣) انظر في ظلال القرآن ٦/٢٩٢
(٤) النحل : ١٤ واللحم الطري هو الأسماك والحيوان البحري على اختلافه والحلية من اللؤلؤ والمرجان .

كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ »[1] .

- ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ . فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾[2] .

هكذا يقرن الله الى نعمه الروحية والمادية والكونية على الانسان ، نعمة خلق حاسة الزينة والجمال لديه . . وهذه البحار تمدّ الانسان - بالاضافة الى الطعام والتجارة - بالزينة من اللؤلؤ والمرجان ، وغيرهما من الأصداف والقواقع التي يتخذها الناس حلية حتى اليوم . والتعبير كذلك عن الفلك يشي بتلبية حاسة الجمال لا بمجرد الركوب والانتقال (وترى الفلك فيه مواخر) فهي لفتة الى متاع الرؤية وروعتها رؤية الفلك (المواخر) تشقّ عباب الماء[3] .

وتؤكد مرة أخرى أن الجمال عنصر أصيل في مفهوم القرآن للحياة . وليست النعمة هي مجرد تلبية الضرورات من طعام وشراب وركوب ، بل هي تلبية لحاسة الجمال ووجدان الفرح والشعور الانساني المرتفع على ميل الحيوان ، وحاجة الحيوان . . ولقد عرضنا فيما سبق كيف وجّه القرآن الحس البشري الى الجمال[4] في بناء السماء ، وفي حدائق الأرض البهيجة ، وفي البحار . وحيثما مدّ الانسان بصره الى مجالي الكون طالعه الجمال . . في الضحى الرائق ، والليل الساجي ، وفي الأنعام كذلك . قال تعالى :

« وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ. وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾[5] ﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ، وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ [6].

---

(1) فاطر : ١٢

(2) الرحمن : ٢٢ - ٢٣

(3) انظر في ظلال القرآن ٥/ ٢٣٢

(4) انظر في هذا البحث ص ١٠٤

(٥) و(٦) النحل : ٦ و٨ . الانعام : الابل والبقر والضأن والمعز .

حين تريحون : تردونها بالعشي الى المراح

حين تسرحون : تخرجونها بالغداة الى المسرح .

ان للانسان في الأنعام دفئا ومنافع ، وفي الخيل والبغال والحمير وسائل للركوب ، وله في قطعان الأنعام الغادية والرائحة جمال ، والخيل[1] كانت ـ وما تزال حتى في عصر الآلة المادي اليوم ـ زينة محببة مشتهاة . ففي الخيل جمال وفتوة وانطلاق وقوة ، وفيها ذكاء والفة ومودة أو حتى الذين يركبونها فروسية ، يعجبهم مشهدها ، ما دام في كيانهم حيوية تجيش لمشهد الخيل الفتية !

***

وفي اختلاف الألوان والأشكال والظلال والكائنات ما يلبي حاسة الجمال ، وما تستريح له العين ، وتهش له النفس ، وتهدأ له الاعصاب . قال تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ(*) بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ(**) . وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾[2] .

فهنا نجد لفتا الى بعض مظاهر خلق الله ونواميس كونه . فالله ينزل من السماء ماء فيخرج به نباتا مختلف الألوان والأنواع والأشكال . وقد خلق الجبال فيها الطرائق المختلفة الألوان كذلك من حمر وبيض وسود ؛ وهذا التنوع في الخلق مشهود أيضا في الناس ، وفي الأنعام ، وفي الدواب ، وفي كلّ دلائل على قدرته وعظمته وبديع صنعته .

وفي كلمات قلائل جمعت الآيات الكريمة بين الأحياء وغير الأحياء في هذه الأرض جمعا يأخذ القلب أمام هذا المعرض الالهي الجميل الألوان والأصباغ .

---

(١) ورد في ذكر الخيل أقوال كثيرة منها ما روي عن رسول الله ﷺ قوله (الخيل معقود بنواصيها الخير الى يوم القيامة ، واهلها معانون عليها) ـ تفسير ابن كثير ٢/٣٢٢ . وقيل : يستحب من الخيل الاناث ، لأن بطنها كنز ، وظهرها عز . وكانت العرب تربط الاناث من الخيل بالافنية للنسل . وروي ان خالد بن الوليد كان لا يركب في القتال الا الاناث لقلة صهيلها ، وقيل ان الصحابة كانوا يستحبون ذكور الخيل عند الصفوف ، واناث الخيل عند الشنات والغارات . (انظر تفسير القرطبي ٨/٣٧) .

(*) مفردة جدة ، وكلمة جدد تعني الطرائق والشعاب او الخطوط او القطع .

(**) غرابيب سود : الغرابيب جمع غريب وهو الشديد السواد .

(٢) فاطر : ٢٧ ـ ٢٨

فاذا نزل الماء من السماء ، خرجت الثمرات مختلفات الألوان والثمار ، فما من نوع من الثمار يماثل لونه لون نوع آخر . بل ما من ثمرة واحدة يماثل لونها لون أخواتها من النوع الواحد . فعند التدقيق في أيّ من ثمرتين أختين يبدو شيء من اختلاف الألوان .

واذا نظرنا الى ألوان الجبال شهدنا في ألوان الصخور شبها عجيبا بألوان الثمار وتنوعها وتعددها (ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود) . . . وهنا لفتة في النص صادقة ، فالجدد البيض مختلف ألوانها فيما بينها . والجدد الحمر مختلف ألوانها فيما بينها . اختلافا في درجة اللون والظلال والألوان الأخرى المتداخلة فيه ، وهناك جدد غرابيب سود ، حالكة شديدة السواد مختلف ألوانها كذلك .

واللفتة الى ألوان الصخور وتعدد أنواعها وتنوعها داخل اللون الواحد ، بعد ذكرها الى جانب ألوان الثمار ، تهز القلب هزّا ، وتوقظ فيه حاسّة الجمال العالي ، فترى الجمال في الصَخرة كما تراه في الثمرة على بعد ما بين طبيعة الصخرة وطبيعة الثمرة ، وعلى بعد ما بين وظيفتيهما في تقدير الانسان .

ثم ألوان الناس . وهي لا تقف عند الألوان المتميزة العامة لأجناس البشر . فكل فرد بعد ذلك متميز اللون بين بني جنسه . بل هو يتميز من توأمه الذي شاركه حملا واحدا في بطن واحد .

وكذلك ألوان الدواب والأنعام ، فالألوان فيها معرض جميل كمعرض الثمار ومعرض الصخور سواء بسواء .

فهذا التنوع والاختلاف في التكوين والتلوين وراءه قدرة القادر وعلم العليم وارادة المريد وحكمة الحكيم ، ولأمر ما عقّب القرآن على ذلك بقوله تعالى : (انما يخشى الله من عباده العلماء) فانّ العلماء اذا وقفوا على أسرار الاختلاف لا يسعهم - وهم يؤمنون بالغيب وقلوبهم مفتحة للخير - الاّ أن يعرفوا الله معرفة حقيقية ؛ يعرفونه بآثار صنعته ، ويدركونه بآثار قدرته ، ويستشعرون حقيقة عظمته برؤية

حقيقة ابداعه . ومن ثم يخشونه حقا ، ويعبدونه صدقا ، بالمعرفة الدقيقة والعلم المباشر ، لا بالقدر الغامض الذي يجده القلب أمام روعة الكون[1] .

وقال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ ، فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نُخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُتَرَاكِباً وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ، إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[2] وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ »[3] .

ففي مشاهد الحياة المتفتحة في جنبات الأرض . ينبهنا القرآن الكريم الى صفحة الكون المنظور لنشهد بديع صنع الله في الماء والإنبات والإثمار ، في شتّى أنواعها ، وشتّى أشكالها . وشتّى أطوارها ، وليلمس الوجدان ما فيها من حياة نامية ، دالة على القدرة التي تبدع الحياة ، وليتوجه القلب الى استجلاء جمالها والاستمتاع بهذا الجمال .

قيل في تفسير التشابه في الآيات الكريمة « أي وأنشأ الزيتون والرّمان متشابها في المنظر وغير متشابه في المطعم قاله ابن جريج ، وقيل ان المراد التشابه بين الزيتون والرّمان في شكل الورق دون الثمر ، وقيل بل المراد ما بين أنواع الرمان من التشابه في الشجر والثمر مع التفاوت في الطعم من حلو وحامض ومر ، وفي اللون من أحمر قانىء قمد أفقاعي وأبيض ناصع أو زهر مشرب بحمرة »[4] ولا تستبعد اجتماع ذلك كلّه لأن الواقع المنظور يدل على ذلك كله ويشهد له .

***

وحيثما مدّ الانسان بصره الى ما حوله في السماء والأرض وجد ما يمتع نظره وقلبه ، وما يغذي روحه وعقله من روائع الجمال والحسن والزينة الباهرة ، فالجمال والزينة جواهر قائمة في تركيب كل شيء في الكون .

وان ادراك الجمال مما يرفع الانسان الى أعلى افق يمكن ان يبلغه ، وصولا الى

---

(١) انظر في ظلال القرآن ٦/ ٦٩٦ - ٦٩٩
(٢) الانعام : ٩٩
(٣) الانعام : ١٤١
(٤) المنار : ٨/ ١٣٥

النقطة التي يتهيأ فيها للحياة الخالدة في عالم طليق جميل ، بريء من شوائب العالم الأرضي والحياة الأرضية . وان اسعد لحظات القلب البشري لهي اللحظات التي يتلمس فيها جمال الابداع الالهي في الكون لأنها هي اللحظات التي تهيئه وتمهد له ليتصل بالجمال الالهي ذاته ويتملاه[1] . ﴿قُلْ : أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ ؟ لِلَّذِينَ اتَّقَوا عِنْدَ رَبِهِّمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ ، وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ ، وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾[2] .

فاذا كانت أحب شهوات الأرض الى النفس الانسانية : النساء والبنين والأموال المكدسة والخيل المسوّمة والأرض المخصبة والأنعام[3] ، ففي الآخرة جنات الفردوس نزلا ، تجري من تحتها الأنهار ، وهي فوق ذلك خالدة ، والمؤمنون فيها خالدون ـ لا كحرث الدنيا الذي أعجب الزراع[4] وأزواج مطهرة ، وحلي من ذهب وفضة ، وغيرها من المتع أعدّها الله لعباده الصالحين .

وفوق ذلك هناك ما هو أكبر من كل متاع . . . هناك (رضوان من الله) . . رضوان يعدل الحياة الدنيا والاخرة كليهما .

---

(١) انظر في ظلال القرآن ١٨٨/٨ وما بعدها .

(٢) آل عمران : ١٥

(٣) « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسوّمة والأنعام والحرث . ذلك متاع الحياة الدنيا ، والله عنده حسن المآب » آل عمران : ١٤ وانظر تفسير المنار ٢٨٣/٣ وما بعدها .

(٤) « اعلموا انما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الاموال والاولاد ، كمثل غيث أعجب الكفار نباته » الآية ٢٠ من سورة الحديد .

ثانياً: الترغيب والترهيب

اهتم القرآن الكريم اهتماما كبيرا بحثّ الانسان على الايمان والتقوى وصالح الأعمال ، اذ ليس هناك من فصام بين الفكر الذي جاء به القرآن ، والعمل الذي أمر المسلمين بأدائه ، بل هما متلازمان أبدا ، فكأن الفكر قوة محركة للأعضاء تستنهضها في سبيل العمل ، وتحملها عليها . وبذلك نستطيع القول أن القرآن كتاب فكر وعمل معا .

ولقد سلك القرآن الكريم في حثّ الناس على الايمان والتقوى وصالح الأعمال عن طريق المشاهد مسلكين هما : الترغيب والترهيب . وهو اذ يفعل ذلك يلحظ ما طبعت عليه النفوس من تباين في التكوين والاستعداد ، فمن النفوس نفوس تستهويها النعم الدنيوية ، وأخرى تتطلب نعم الآخرة ، ولذلك يقدّم لها القرآن من هذه النعم ما يلبي حاجتها ، وتجد فيه بغيتها ، وينقل لها من أخبارها ما تطمئن به .

ومن النفوس ما لا يجديها الترغيب وحده ، بل لا بد لها من الترهيب والوعيد فهو لذلك يقدّم مثلا من سنن الله في الذين خلوا ، وما أصابهم من عذاب بسبب كفرهم وجحودهم . ويشفع ذلك بالتهديد بوقوع مثل ذلك العذاب الذي لقيه الأولون ، ويضيف الى ذلك كلّه ، عذابا آخر أشد وقعا في النفوس وهو عذاب الآخرة الذي وعد به المكذبون .

- ١ -

الترغيب

وقد سلك القرآن الكريم في الترغيب مسلكين :

أ ـ الترغيب بالنعم الدنيوية .

ب ـ الترغيب بالنعم الأخروية .

أ ـ **الترغيب بالنعم الدنيوية** ببيان سنة من سنن الله ، وقانون من قوانينه في الاجتماع والمجتمعات[١] . فهو يعلمنا أن المجتمع المؤمن الصالح التقي الذي يخاف الله ويخشاه ، ويعمل على رضاه ، يفتح الله عليه خيرات السماء والأرض ، ويمدّه بالنعم الكثيرة المتباينة ، وأن المجتمع الذي يعرض عن الحقّ ، ولا ينصاع له فيكذّب ما دعي اليه من خير وصلاح ، تنقطع عنه تلك النعم وتحجب عنه تلك الخيرات .

وقد بينّ القرآن في مواضع متكررة أن هنالك ارتباطا بين صلاح القلوب واستقامتها على هدي الله ، وبين تيسير الأرزاق ، وعموم الرخاء ، ويبدو ذلك جليا عند الإخبار عن أحوال الأمم السالفة .

قال تعالى متحدثا عن أهل الكتاب :

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ، مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾[٢] .

وقال الله تعالى :

---

(١) انظر مقال الاستاذ محمد محمد المدني ـ مجلة الأزهر جـ ١ ـ السنة ٣٨ ـ ابريل ١٩٦٦ ص ٥ ـ ٦

(٢) المائدة : ٦٦

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ، وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (١) .

ان صلاح الايمان والتقوى وتحقيق منهج الله في واقع الحياة البشرية يكفل صلاح أمر هذه الحياة الدنيا ، ويحقق لأصحابه جزاء العاجلة . . فيضا من الرزق ، ونماء ، وكفاية . . ترسمها الآية الاولى بصورة حسية تجسّم معنى الوفرة والفيض في قوله (لأكلوا من فوقهم ومن تحت ارجلهم) « عبارة عن التوسعة وفيه ثلاثة أوجه : أن يفيض عليهم بركات السماء وبركات الأرض ، وأن يكثر الأشجار المثمرة والزروع المغلة ، وأن يرزقهم الجنان اليانعة الثمار يجنون ما تهدّل منها من رؤوس الشجر ويلتقطون ما تساقط على الأرض من تحت أرجلهم »(٢) .

اذن فالايمان بالله وتقواه يؤهلان لفيض من بركات السّماء والارض . وعدا من الله . ومن أوفى بعهده من الله ؟ وهذه البركات مفتوحة بلا حساب . من فوقهم ومن تحت أرجلهم . . بركات شتى وفيض غامر لا يفصّلها النص ولا يحدّدها ، ولكنه يوحي بصور الفيض الهابط من كل مكان ، النابع من كل مكان ، بلا تحديد ولا تفصيل ولا بيان . فهي البركات بكلّ أنواعها وألوانها ، وبكل صورها وأشكالها ، ما يعهده الناس وما يتخيلونه ، وما لم يتهيأ لهم في واقع ولا خيال ! .

ولقد نشهد في بعض الفترات أمما لا تتقي الله ولا تؤمن به ، وهي - مع هذا - موفورة الخيرات ، كثيرة الانتاج عظيمة الرخاء . . ولكن هذا انما هو الابتلاء قال تعالى : ﴿ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ، وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾(٣) ثم هو بعد ذلك رخاء تأكله آفات الاختلال الاجتماعي والانحدار الأخلاقي ، أو الظلم وإهدار كرامة الانسان(٤) .

هكذا تمضي سنة الله أبدا . وفق مشيئة في عباده . وهكذا يتحرك التاريخ الانساني بارادة الله وعلمه ، ويحدثنا القرآن على لسان نوح عليه السلام اذ يخاطب

---

(١) الأعراف : ٩٦

(٢) تفسير الزمخشري : ١/ ٦٣٠

(٣) الانبياء : ٣٥

(٤) انظر في ظلال القرآن ٣/ ٥٨٨ وما بعدها .

قومه طالبا اليهم الاستغفار والتوبة من الذنوب ، وواعدا إياهم نعما كثيرة من السماء والأرض فيقول :

﴿ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً . فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً . يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً . وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً ﴾[1] .

لقد قال نوح عليه السلام لقومه : اطلبوا من الله أن يصفح عما فرطمنكم ، فانه لم يزل غفارا لذنوب من يرجع اليه ، وليرسل السماء عليكم غزيرة الدر بالمطر ، ويمدكم بأموال وبنين هما زينة الحياة الدنيا ، ويجعل لكم بساتين تنعمون بجمالها وثمارها ، ويجعل لكم أنهارا تسقون منها زرعكم ومواشيكم ، أي ان آمنتم أمدكم بسعادة دنيوية تكفل لكم حياة رغدة وعيشة راضية .

﴿ وقد جاء هذا الوعد بالخيرات على لسان هود عليه السلام لقومه عاد « وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً ، وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلاَ تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ »[2] . وذلك أنه دعاهم الى الايمان بالله تعالى ، والى العدول عن عبادة سواه ، لأن التوبة عن شركهم لا تصحّ إلاّ بعد ايمانهم بربهم ، ووعدهم الجزاء العظيم على هذا ، أن يرزقهم الله تعالى مطرا كثيرا فهم اصحاب زروع وبساتين ، حراص على زروعهم وبساتينهم أشد الحرص ، فهم في حاجة الى الماء ، ووعدهم أن يزيدهم الله تعالى قوة الى قوتهم ، لأنهم أصحاب شدة وبأس ، وكانوا مدلين بشدتهم وبأسهم[3] .

والملحوظ في جميع النصوص السابقة الارتباط بين صلاح القلوب واستقامتها على هدي الله ، وبين الرخاء والتمكين في الأرض ، وجعل الماء أول اسباب تحقيق هذا الرخاء . . . وما تزال الحياة جارية تجري على خطوات الماء في كل بقعة . وما يزال الرخاء يتبع هذه الخطوات المباركة حتى هذا العصر الذي انتشرت فيه الصناعة ، ولم

---

(١) نوح : ٩ - ١٢ . مدرارا : متواصلة الأمطار
(٢) هود : ٥٢
(٣) انظر تفسير الزمخشري ٢/ ٢٧٥

تعد الزراعة هي المصدر الوحيد للرزق والرخاء . ولـكن الماء هو الماء في الرخـاء والعمران .

هكذا نجد القرآن الكريم يربط بين هذه النعم الإلهية المنهمرة من السماء ، أو المخرجة من الأرض بإيمان الناس وتقواهم ، كما يربط انقطاعها عنهم ، وندرتهـا فيهم ، بتجافيهم عن الحقّ وركونهم الى الضلالة ، كل ذلك ليحملهم على العمـل الصالح ، ويرغبهم في التقوى .

ب ـ الترغيب بالنعم الأخروية :

ما أقصر الحياة الدنيا وما أضيقها حين تحس النفس الانسانية أنها لا تتصل بحياة سواها ؛ ولا تطمع في غير أنفاس وساعات على الأرض معدودات .

إن الايمان بالحياة الآخرة نعمة . نعمة يفيضها الايمان على القلب . نعمة يهبها الله الى الفرد الفاني ، المحدود الأجل الواسع الأمل . وما يغلق أحد على نفسه هذا المنفذ الى الخلود ، الاّ وحقيقة الحياة ناقصة في روحه أو مطموسة . فالايمان بالآخرة ـ فوق أنه ايمان بعدل الله المطلق وجزائه الأوفى ـ هو ذاته دلالـة على فيض النفس بالحيوية ، وعلى امتلاء بالحياة لا يقف عند حدود الأرض ، انما يتجاوزها الى البقاء الدائم ، الذي لا يعلم الاّ الله مداه ، والى المرتقى السامي الذي يتجه صعـدا الى جوار الله .

والاعتقاد باليوم الآخر ضروري لاكتمال الشعور بأن وراء الحياة حكمة ، وأن الخير الذي تدعو اليه الرسالات هو غاية الحياة ، ومن ثم لا بد أن يلقى جزاءه ، فان لم يلقه في هذه الحياة الدنيا فجزاؤه مضمون في العالم الآخر ، الذي تصل فيه الحياة البشرية الى الكمال المقدر لها . أما الذين يزيغون عن منهج الله وحكمتـه في الحياة فهؤلاء يرتكسون الى درك العذاب . . وفي هذا ضمان للفطرة السليمة ألا تنحرف . فان غلبتها شهوة أو استبد بها ضعف عادت تائبة ، ولم تلجّ في العصيان . ومن ثم تصلح هذه الأرض لحياة البشر ، وتمضي سنتها في طريق الخير . فالاعتقـاد باليوم

الآخر ليس طريقا للثواب فحسب ـ كما يعتقد بعض الناس ـ انما هو حافز على الخير في الحياة الدنيا . وعلى اصلاحها ونمائها . على أن يراعى أن هذا النماء ليس هدفا في ذاته ، وانما هو وسيلة لتحقيق حياة لائقة بالانسان الذي نفخ الله فيه من روحه ، وكرّمه على كثير من خلقه ، ورفعه عن درك الحيوان ، لتكون أهداف الحياة أعلى من ضرورات الحيوان ، ولتكون دوافع الانسان وغاياته أرفع من دوافع الحيوان وغاياته . وهكذا ترتبط الدنيا بالآخرة ، والمبدأ بالمصير ، والعمل بالجزاء ، ويشعر الانسان أنه ليس لقي مهملا ، وأنه لم يخلق عبثا . ولن يترك سدى . وان العدالة المطلقة في انتظاره ، ليطمئن قلبه ، ويفيء الى العمل الصالح ، والى عدل الله ورحمته في نهاية المطاف .

لذا جعل القرآن الكريم الفوز بالجنة رهن شيئين متلازمين : الايمان ، وهو العقيدة التي يحملها المسلم ، وعمل الصالحات ، وهو يتعلق بتنفيذ ما في العقيدة من مفهومات ، وإخراجها الى الواقع العملي . والقرآن اذ يشوّق الى الجنة ، فانما يحثّ الناس على الالتزام بهذين الجانبين ، الايمان والتقوى ، ثم العمل الصالح ، ويدعو الى تنفيذهما في الفكر والعمل[1] . قال تعالى :

﴿ بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيْهَا خَالِدُونَ . وَالَّذِيْنَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيْهَا خَالِدُونَ ﴾[2] .

وقد فصّل الله متاع الجنة التي اعدت للمؤمنين[3] ووراءها متاع يعرفونه هناك يوم يتهيأون لإدراكها مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر قال تعالى : ﴿ فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[4] .

وقد حبب الله الجنة للمؤمنين ، ووعد بها المتقين اذ جعلهم ورثة جنة النعيم قال تعالى :

---

(1) انظر في ظلال القرآن ١/١١٢ .
(2) البقرة : ٨١ ـ ٨٢
(3) انظر مبحث النعيم المقيم في الجنة من الفصل الخامس ـ مشاهد الآخرة .
(4) السجدة : ١٧

﴿ وَالَّذِيْنَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللّهِ وَلاَ يَنْقُضُونَ الْمِيْثَاقَ . وَالَّذِيْنَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ، وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ، وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ . وَالَّذِيْنَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ ، وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ ، وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلاَنِيَةً وَيَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ . جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ، وَالْمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ : سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ ، فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾[1] .

وضخامة المتع الحسية والمعنوية ، بدخول من صلح من الآباء والازواج والأبناء تلك الجنات التي جيء بها بصيغة الجمع للاشعار بعظم النعمة ، وتسليم الملائكة على المؤمنين ، تتناسب وضخامة أعمال أولئك الفائزين بهذه الجنات .

وفي مقام آخر ترهف آذاننا لنستمع الى لون آخر من التكريم للذين آمنوا وكانوا مسلمين : ﴿ يَا عِبَادِ لاَ خَوْفَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ وَلاَ أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ . الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينْ . ادْخُلُوا أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴾[2] أي تسرون بما يشيع الحبور في نفوسكم ويظهره في سماتكم ثم نشهد ـ بعين الخيال ـ ألوانا من النعم : فاكهة كثيرة ، وصحاف من ذهب وأكواب يطاف بها عليهم . وما تشتهيه أنفسهم وتلذّ أعينهم ولهم فوق ذلك الخلود في هذا النعيم . . . كل ذلك بسبب عملهم الصالح : ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ، وَفِيْهَا مَا تَشْتَهِيْهِ الأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ . وَأَنْتُمْ فِيْهَا خَالِدُونَ . وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُرِثْتُمُوها بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ . لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾[3] .

وفي مقام آخر عرض القرآن الكريم ألوانا من النعيم يناله المتّقون : ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ، فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيرِ آسَنٍ ، وَأَنْهَارٌ مِنْ لَّبَنٍ لَمْ يَتَغَيرَّ طَعْمُهُ ، وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلْشَّارِبِيْنَ ، وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى ، وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ، وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِهِّم ﴾[4] .

---

(١) الرعد ـ ٢٠ ـ ٢٤
(٢) الزخرف : ٦٨ ـ ٧٠
(٣) نفسها : ٧١ ـ ٧٣
(٤) محمد : ١٥

ان الجنة التي وعدها الله للمتقين رائعة !! ففيها أنهار المياه الطاهرة التي لا تنتن ، وأنهار اللبن الذي لا يتغير طعمه ، وأنهار الخمر التي تلذ للشاربين ، وأنهار العسل المصفى ، ولهم منها ما يريدون من الثمرات ، فضلا عن رضوان الله ورحمته وغفرانه (١) .

وهذا دون شك له أثره الكبير في تحقيق الغرض الديني ، الذي قصد اليه القرآن الكريم ، وهو تحريك النفوس ، وحثّها على الايمان والتقوى والعمل الصالح .

واذا كانت السماء والارض تستهويان الانسان بعظمتهما ، وتسلبان لبه بفخامتهما فان القرآن قد جعلهما سعة الجنة التي وصفها بأنها (أعدت للذين آمنوا بالله ورسوله) وبينّ أن ذلك فضل الله الذي يمنحه من يشاء من عباده وأنه فضل عظيم . ثم جعل صورة الجنة الممثل لسعتها بالسماء والأرض ، مقابلة لصورة الحياة الفانية ، لزيادة التأثير في النفوس ، والحثّ على نيل تلك الجنة العظيمة بالايمان والتقوى . يتجلى ذلك في قوله تعالى : ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُم وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ، كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الكُفَّارَ(*) نَبَاتُهُ ، ثُمَّ يَهِيجُ(**) فَتَرَاهُ ، مُصْفَرّاً ، ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً ، وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ ، وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ . سَابِقُوا إِلَىَ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ، وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، أُعِدَّتْ لِلَّذِيْنَ آمَنُوا بَاللَّهِ وَرُسُلِهِ ، ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾(٢) .

وفي مقام آخر وصف القرآن الجنة بأنها سعتها السموات والارض ، وجاء بلفظ السموات مجموعا مع اسقاط حرف التشبيه (الكاف) للإشعار بعظمة الجنة من ناحية وليكون التشبيه أبلغ ، ووقعه في النفوس اعظم من ناحية أخرى ، ثم جعلها هذه المرة للمتقين ، وحثّ الناس وطلب اليهم الاقبال على ما يوصلهم اليها بعد أن

---

(١) انظر مبحث شراب اهل الجنة وانهارها من الفصل الخامس ـ من كتابنا الوحدة الموضوعية في دراسة مشاهد الآخرة .

(*) أعجب الكفار : أعجب الزراع

(**) يهيج : ييبس في أقصى غايته

(٢) الحديد : ٢٠ ـ ٢١

جعلها في المرة السابقة للمؤمنين » . والملحظ ان سعة هذه الجنة وضخامتها ، تناظر ضخامة أعمال المتّقين الذين فازوا بتلك الجنة العظيمة ، فهم ينفقون أموالهم في العسر واليسر ، (ويكظمون الغيظ) ، ويعفون عمن أساء اليهم ، واذا أخطأوا تذكّروا ربهم فاستغفروا وتابوا ورجعوا الى طاعته ، ولم يصروا على الاستمرار في المعصية يتجلى ذلك في قوله تعالى :

« وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَٰوَاتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ . الَّذِيْنَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ . وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ ، وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ ، وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ . أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾[١] .

والملاحظ أنّ القرآن حيثما يذكر الجنات ، فالغالب أن يذكر « الماء » معها ، سواء أعبر ذلك « بالانهار » أم « بالعيون » وهذه مسألة عرضنا لها من قبل[٢] ونشير هنا الى أن القرآن قد أورد ما يستهوي النفوس ، ويثير فيها السرور والبهجة ولا يخفى ما لهذا من أثر في تحقيق الغرض الديني في الحثّ على الايمان والتقوى والعمل الصالح . ولزيادة التأثير في النفوس تكررت في القرآن المقابلة بين الجنة أو الجنات وبين النار ، ومن مثل ذلك قوله تعالى :

﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ . وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ . وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ ، يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾[٣] .

وللحث على التقوى ، وقع في القرآن التشويق الى الجنة بوصف أنهارها الجارية وأكلها الدائم ، وظلها الذي لا ينحسر ، قال تعالى :

---

(١) آل عمران : ١٣٣ ـ ١٣٦ .

(٢) انظر مبحث شراب أهل النار وانهارها من الفصل الخامس من كتابنا الوحدة الموضوعية في مشاهد الاخرة .

(٣) النساء : ١٣ ـ ١٤

﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا ، تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا ، وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴾[1] .

وكأنه يشير بذلك الى أن هذه النعم الدنيوية ـ وان أغرت الانسان وأعجبته ـ لا بقاء لها ولا دوام ، بل هي زائلة فانية فما بال الانسان يجعلها همّه الوحيد ، وشغله الشاغل ، مع أن هناك ما يفوقها في المسرة والايناس والنفع ، وهو ذلك الخير الالهي الأخروي ، الذي لا ينقطع مورده ولا ينضب معينه . واذا كان الانسان قد عمل في هذه الدنيا وكدّ وكدح لينال شيئا من هذه النعم وأمثالها ، فما باله لا يعمل لنيل تلك النعم الفائقة والخيرات الكثيرة الباقية ؟ فوق ما يدفعه عن نفسه من نار أعدت للكافرين .

ان صور النعيم والعذاب ترد في مواضع شتّى من القرآن الكريم ، . والله الذي خلق البشر أعلم بمن خلق ، وأعرف بما يؤثر في قلوبهم ، وما يصلح أن يكون وعدا ووعيدا ـ ترغيبا وترهيبا . وأوصاف النعيم وأوصاف العذاب كلتاهما مستمدة من مألوف الناس ومفهوماتهم ، على سبيل التقريب والتمثيل ، لأنّ الناس لا يتأثرون الا بما في أذهانهم من صور ، وما يقع تحت مشاهداتهم وحسهم وتجاربهم . وبما أنّ المألوفات والمفهومات في هذا الباب متنوعة فالمتبادر أن الحكمة اقتضت التنويع لتحقيق الهدف الدنيوي من الترغيب والترهيب .

---

(١) الرعد : ٣٥

- ٢ -

الترهيب

مثلما دعا القرآن الكريم الى طاعة الله والى العمل الصالح ، ورغّب فيه بثواب في الدنيا وثواب في الآخرة ـ نهى القرآن عن الشرك بالله ، وعن مخالفة أمره ، وعن اقتراف الآثام ، وتوعّد بالعذاب في الدنيا ، وفي الآخرة من يعبدون غير الله أو يجترئون على محارمه .

وقد سلك القرآن الكريم في الترهيب مسلكين أيضا :

أ ـ الترهيب بالعذاب الدنيوي .

ب ـ الترهيب بالعذاب الأخروي .

أ ـ الترهيب بما أصاب الأمم السابقة

توعّد الله تعالى العصاة بعذاب واقع ما له من دافع ، وأنذر الطغاة بعقاب شديد رادع ، عسى أن ينيبوا الى ربهّم ، ويستغفروا من آثامهم .

وقد سيقت القصة القرآنية لتحقيق الأغراض الدينية ومنها التذكير والتمثيل والانذار والدعوة والاعتبار . . وقد لقيت الأمم الظالمة مصارعها بما سلّطه الله عليها من آفات وظواهر كونية مهلكة . فعندما يذكر طوفان نوح عليه السلام ، وما صحبه من اهلاك قوم وانجاء قوم يصفه وما قبله بأنه تذكرة تعيه أذن واعية تعتبر بأحوال الماضين ، ومصارع الغابرين فتتجنب الكفر ، وتتجافى عن الباطل ، وتتمسك بالايمان :

﴿ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ . فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ ، فَأَخَذَهُمْ

أَخْذَةً رَّابِيَةً . إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ، لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴾[1] .

قال الزمخشري : « (حملناكم) أي حملنا آباءكم (في الجارية) في سفينة لأنهم اذا كانوا من نسل المحمولين الناجين كان حمل آبائهم منّة عليهم وكأنهم هم المحمولون لأن نجاتهم سبب ولادتهم (لنجعلها) الضمير للفعلة وهي نجاة المؤمنين واغراق الكفرة (تذكرة) عظة وعبرة (أذن واعية) من شأنها ان تعي وتحفظ ما سمعت به ولا تضيعه بترك العمل »[2] .

وهو اذ يذكر (عادا) وتكذيبهم فانه يذكر ما أصابهم من ويل وثبور بتلك الريح الشديدة المهلكة التي سلّطها الله عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما . بحيث لم تبق منهم أحدا ، فكأنهم اذ صرعوا بها ، أصول نُخل بالية نخرة ، أو نخل خالية الأجواف لا تثبت لريح ، قال تعالى :

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ . فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ . وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ . فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ﴾[3] .

ولقد بعث الله موسى عليه السلام الى فرعون وقومه ليدعوهم الى عبادة الله تعالى ، ولكن فرعون استكبر وطغى ، فابتلاهم الله بألوان العذاب والنذر ، فكانوا يلجأون الى موسى ليدعو ربّه أن يكشف عنهم ما ابتلاهم به ليؤمنوا بالله ، ثم لا يلبثون ان يعودوا الى كفرهم ، وينقضوا عهدهم ، قال تعالى :

« وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنْ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ، فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ، وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ ، أَلاَ إِنَّمَا

---

(١) الحاقة : ٩ ـ ١٢ والمؤتفكات قرى قوم لوط (اهلها) . وأخذة رابية : شديدة زائدة في شدتها .

(٢) الكشاف ٤/ ١٥٠

(٣) الحاقة : ٤ ـ ٨ ـ الطاغية : بالصيحة التي تجاوزت شدتها كل حدّ . بريح صرصر عاتية : بريح باردة شديدة الصوت قوية جدا . حسوما : متتابعة .

طائِرُهُم عِنْدَ اللّهِ ، ولَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ . وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ . فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَفَادِعَ وَالدَّمَ ، آيَاتٍ مُفَصَّلاَتٍ ، فَاسْتَكْبَرُوا ، وَكَانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ ﴾[1] .

لقد ابتلاهم الله تعالى بفيضان عال عات يغرق ويخرّب ، أو بمطر منهمر مدرار في وقت نضج فيه الزرع واستحصد . وبعث عليهم الجراد فأكل زروعهم .. وسلّط عليهم القمل ، وعاقبهم بالضفادع التي ملأت بيوتهم وشرابهم وطعامهم . واصابهم بالدم رعافا من أنوفهم ، أو خليطا بمائهم . وعذبهم باهلاك أموالهم[2] .

وقد يتناول الترهيب لونا آخر من ألوان الوعيد ، وهو التهديد بعقوبة كونية كالتي عوقب بها قوم سابقون . فالله يأمر رسوله ﷺ بأن يهدد المشركين ان أعرضوا عن الاسلام بصاعقة تهلكهم كالصاعقة التي أهلكت قوم عاد وثمود ، قال تعالى مجملا ما حلّ بهم أولا :

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُم صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ . إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِم أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللهَ ، قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لأَنْزَلَ مَلاَئِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾[3] .

ثم فصله بعد ذلك بقوله :

﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةٍ ، أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الذي خَلَقَهم هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةٍ ، وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ . فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِم رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ،

---

(١) الأعراف : ١٣٠ - ١٣٣

طائرهم عند الله : شؤمهم عقابهم الموعود في الاخرة .

(٢) انظر تفسير ابن كثير ٢/ ٣٤٠ وما بعدها ، والمنتخب في تفسير القرآن الكريم ص ٢٢٦ .

(٣) فصّلت : ١٣ - ١٤

ولَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَى ، وَهُمْ لاَ يُنْصَرُونَ وأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُم فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهَونِ بِمَا كَانُوا يكْسِبُونَ ﴾[1] .

ثم بينّ أن اولئك الذين آمنوا لم يصبهم ما أصاب الكافرين الجاحدين :

﴿ ونَجَّيْنَا الَّذِيْنَ آمَنُوا وكَانُوا يتَّقُونَ ﴾[2] .

وقال تعالى :

﴿ أَفَأَمِنْتُم أَنْ يَخْسِفَ بِكُم جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُم حَاصِباً ، ثُمَّ لاَ تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً . أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُم فِيهِ تَارَةً أُخْرَى ، فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفاً مِنَ الرِّيْحِ ، فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ، ثُمَّ لاَ تَجِدُوا لَكُم عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعاً ﴾[3] .

هكذا نجد القرآن قد أولى الترهيب بمظاهر الكون اهتماما ، من أجل حمل الناس على الايمان ، اما بتذكيرهم بما جرى على الأوائل من عذاب ، واما بتهديدهم بالعذاب نفسه ، الاّ ان الترهيب بمظاهر الكون قليل في القرآن الكريم اذا قيس بالترغيب فيه ، ومع ذلك كان الترهيب وسيلة لا بدّ منها لأناس لا يجديهم الترغيب نفعا في حملهم على الايمان .

ب ـ الترهيب بالعذاب الأخروي

انّ الذين لا يخافون الآخرة تظلّ قلوبهم صماً لا تتفتح للآيات ولا تحسّ بحكمة الخلق والاعادة ، ولا ترى الاّ واقعها القريب في هذه الدنيا . وحتى العبر التي تمرّ في هذه الحياة لا تثير فيهم عظة ولا فهما ، لذا كان الانذار الأكبر والأشد والأكثر تكرارا في القرآن هو الانذار بيوم الجمع ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِياً لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى

(١) نفسها : ١٥ ـ ١٧ . ايام نحسات : مشئومات أو ذوات غبار وتراب . فهديناهم : بينا لهم طريقي الخير والشر .

(٢) نفسها : ١٨

(٣) الإسراء : ٦٨ ـ ٦٩ . الحاصب : الريح التي ترمي بالحصباء وكيلا : حامياً يصرف ذلك عنكم . القاصف الريح الشديدة المهلكة . التبيع : المطالب المسيطر .

وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ ، لاَ رَيْبَ فِيْهِ ، فَرِيْقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيْقٌ فِي السَّعِيرْ ﴾[1] .

يوم يجمع الله ما تفرق من الخلائق على مدار الأزمنة واختلاف الأمكنة ، ليفرقهم من جديد (فريق في الجنة وفريق في السعير) بحسب عملهم في دار العمل في هذه الأرض . في فترة الحياة الدنيا . حيث ينعم أهل الجنة بنعيمها ، وحيث يلقى في جهنم أهلها ليذوقوا العذاب . . . ﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً . إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَراً وَمُقَامًا ﴾[2] .

وقد تكلمنا عن عذاب النار ونعيم الجنة في الباب الثاني من مشاهد الآخرة[3] ورأينا كيف تداعت ايحاءات المشاهد عند وصفها : مشاهد النار ، ولهيبها وشررها ، وصفة شراب أهل النار وقد صوّره القرآن بعدة صور مفزعة ، فهو تارة الحميم ، وأخرى الغسّاق ، ومرة المهل ، ومرة الصديد ، وما يعاني أهل النار من صور العطش المضني ، وصفة طعام أهل النار من ضريع لا يسمن ولا يغني من جوع . وكيف جعل الله طعام أهل النار من شجرة الزّقوم . وكيف يقيدون بالسلاسل والأغلال . . وغيرها من صور العذاب .

ولمشاهد الآخرة التي وصفها الله سبحانه وتعالى دلالات على البيئة العربية ، ليستطيع الذهن تخيلها وحتى يكون الترغيب والترهيب بأمور يفهمها الناس وهذا أدعى لحملهم على الايمان والعمل الصالح ، والبعد عن الكفر والضلال .

والقرآن باعجازه الرائع ينقل النفس الانسانية في لحظات متعددة من الهدوء الشامل ، والنعيم الرائع ، تنساب فيه النفس وتتأمله باعجاب ، الى الخوف الرهيب والعذاب الموجه ترتاع منه النفس وتتصدع خوفا وهلعا .

ومما مرّ بنا من مشاهد نستطيع أن نتصور الايحاء الرهيب الذي ترسمه الآيات الكريمة في وصف هول النار ، وعذاب لهيبها ، وسائر أوصافها . كقوله تعالى في صفة لظى النار المحرقة :

---

(١) الشورى : ٧

(٢) الفرقان : ٦٥ - ٦٦ .

(٣) الوحدة الموضوعية في مشاهد الآخرة .

﴿يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ، وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ، وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ، وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً، ثُمَّ يُنْجِيهِ، كَلاَّ! إِنَّهَا لَظَى، نَزَّاعَةً لِلشَّوَى، تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى﴾(١).

الناس في ذهول، لا يلتفت أحد الى خارج نفسه، ولا يجد فسحة في شعوره لغيره، ولقد قطع الهول المروّع جميع الوشائج، وحبس النفوس على همها لا تتعداه. وانهم ليتراءون ويبصّر بعضهم ببعض فيراه، ولكن لكل منهم همه، ولكل منهم شغلة . . . والمشهد المفزع يعيد الى الذاكرة أذى الحر ولفح الهاجرة، ولكنّ الهلع الأكبر في ان حر النار وعقابها لا يقارن بصورة من صور الدنيا، ولا تدركه عقول البشر مهما تخيلته قال تعالى:

« سَأُصْلِيهِ سَقَرَ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ، لاَ تُبْقِي، وَلاَ تَذَرُ. لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ »(٢).

﴿كَلاَّ لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ، نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ، الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ. إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ، فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ﴾(٣).

وللذهن أن يتصور نار الآخرة كما يصفها الله سبحانه وتعالى ويذهب في تصورها كل مذهب، وله أن يتصور بعض ملامحها فيما عاناه في حياته الدنيا من الأذى والعذاب، وعلى ضوء مشاهداته الدنيوية.

***

بهذا ينتهي حديثنا عن الجوانب الفكرية للمشاهد، وقد تبينّ لنا أن القرآن الكريم قد جعل المشاهد الكونية والاخروية مجالا متراميا لتحقيق أغراضه التي كانت نورا وهداية للبشرية في ليلها الحالك، وظلماتها المتكاثفة، عسى ان تتفيأ ظلال الايمان والسعادة، والتي ما تزال البشرية اليوم تفتقر اليها، وسط هذا الصراع الذي يكاد يودي بها، ويطويها طي السجل للكتب، ويذهب بما لها من عمران وكيان.

***

---

(١) المعارج: ١١ - ١٧.

(٢) المدثر: ٢٦ - ٢٨.

(٣) الهمزة: ٤ - ٩.

الخاتمة

خرجت من دراستي هذه ـ الكون والانسان في التصور القرآني ـ بالنتائج التالية :

النتيجة الأولى ـ ليس القرآن في واقعه التاريخي وعند أهله وأصحابه الذين نزلت بينهم آياته نظريات فيلسوف أو خيال شاعر ، ولكنه كتاب حياة ، فلا تنفصل فيه الفكرة عن جمال التعبير ولا جمال التعبير عن الفكرة . ولقد فهمه العرب ودخل في وعيهم على أنه كلّ لا أجزاء ، وتأثروا في آن واحد بفكره وجمال أدائه مجتمعين غير منفصلين . فالفكر يسجل الحقيقة ويعبّر عنها ، وتنسيق الأداء يصوّر الجمال ويعبر عنه .

والحقيقة والجمال في الحياة والكون ملتقيان ، فالشمس والقمر والنجوم ، والسهل والجبل ، والبحر والنهر ، والشجرة والزهرة والشوكة ، والفراشة كلّها من حقائق الكون ولكلّ منها جماله .

لقد تضمن القرآن دعوة الى تصور معين للكون والحياة والانسان ، وعبّر تعبيرا جميلا عن هذا التصور . والقرآن والكون كلاهما تلتقي فيهما الحقيقة والجمال ويتلازمان . ولقد عنيت في هذا البحث بدراسة هذا اللقاء .

***

النتيجة الثانية ـ ان ابداع التصوير ، واحكام تركيب الآيات في المشاهد القرآنية

واطرادها على نسق واحد مع تنوع ألوان التصوير وارتفاعه الى المستوى الذي يوازي ما تضمنه من المعاني والفكر ما لا عهد للعرب به قبل نزول القرآن ، وما يجعلنا نقف أمام بلاغة جديدة وفن من القول كان لهما أثر كبير في رقي اللغة العربية وجعلها أداة جميلة للتعبير عن مفاهيم الحضارة ومختلف الأفكار . وكذلك الشأن في المفردات التي تألفت منها الجمل والآيات في اختيارها من كلام العرب اختياراً يجمع فيها دقة الدلالة وحسن الموقع في الكلام وجمال الجرس .

***

النتيجة الثالثة - ان هناك تناسقا جميلا بين حركة الانسان كما يريدها الله وحركة هذا الكون الذي أبدعه الله . . والانسان ازاء مشاهد الكون أمام عالم من الحقيقة . ولهذا العالم سننه ونظمه ، وميادينه وآفاقه ، وحركته . وهو عالم جدير بالتأمل والتفكر ، قابل للانتفاع والاستثمار ، ومحل للتمتع بجماله وزينته .

وليس التفكر والانتفاع والاستمتاع غاية في ذاته انما هو نقطة الانطلاق للوصول الى الخالق المبدع . فالانسان عن طريق التفكر والتأمل في آفاق الكون يصل الى مبدعه . وعن طريق الانتفاع بما في الكون يشكر المسخّر والمنعم . وعن طريق الاستمتاع بجمال الكون وزينته يتذكر مبدع جماله .

***

النتيجة الرابعة - وانتهت بي الدراسة الى أن وضع (العلم) بجانب (القرآن) سيظل على الهامش مهما قطع العلم وأيقن ، وستظل مقاطع العلم ومياقنه وحقائقه محل ريبة من العقل ، وليس في العلم شيء قاطع الاّ في محصلة العقل والعقل حادث وما أتى من الحادث لا يوسم بالقطع واليقين . لذا لم أعلق الحقائق القرآنية الثابتة على النظريات العلمية القابلة للتعديل والتبديل ، ولم أزد على مجرد الاشارة عند مقتضى المقام ، مكتفيا باثبات الحقيقة القرآنية دوما .

كذلك انتهيت الى أنه لا مكان في هذا الوجود للمصادفة العمياء ولا للفلتة العارضة : (انا كلّ شيء خلقناه بقدر) . . (وخلق كلّ شيء فقدره تقديرا) . .

وكل أمر لحكمه . . ولكنّ حكمة الغيب العميقة قد لا تتكشف للنظرة الانسانية القصيرة .

***

وقد ترتب على كثرة المباحث الفرعية التي عالجتها هذه الدراسة وفرة من النتائج ، اكتفي بعرض ملخص لاهمها :

١ ـ لم يكن عرض القرآن لمشاهد الكون مقصودا لذاته ، وانما كان نقطة انطلاق لغاية وراءها ، وهي نقل الانسان عن طريق التأمل والتفكر في ملكوت السموات والأرض الى الايمان بالله ، وبالكتاب ، وبالنبوة ، وبالبعث . وقد اقترنت المشاهد غالبا بالألفاظ الدالة على الحواس والتفكير من نحو : النظر ، والرؤ ية ، والسماع والابصار والتبصر .

٢ ـ وعندما يتلقى الانسان منهجه عن ربّه تتحدد علاقته بالكون من حوله ، فيدرك ان كل ما في الكون مسخّر لخدمته ومصلحته تمكينا له في الأرض ليجد ـ بمقدار ما يتسع له إدراكه وعلمه ـ دواء لمصائبه وحلا لمشكلاته وفائدة لحياته . ومن ثم كان على الانسان أن يقبل على الكون تفهما له وافادة منه .

٣ ـ والقرآن يحذر الانسان من أن ينظر الى شيء من مظاهر الكون وفوائده المختلفة على أنه مما يجب الصدود عنه أو عدم اشغال الذهن أو الحياة به رهبة أو تزهدا ﴿قل من حرّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ﴾[1] .

٤ ـ وجملة ما يقرره القرآن عن الكون أنه مسخّر للانسان ، يفيد منه بمقدار ما يتأمل ويستبطن ظواهره ، ويستثمر طيباته ، وينطلق في آفاقه . ولعلّ كلمة (التسخير) من أقوى التعابير في الدلالة على الخدمة المستقرة الدائبة ، وعلى الانسان أن يفيد منه ويسخره لصلاحه في المعاش الدنيوي والمعاد الأخروي .

وتتم عقيدة الايمان بالجزاء في الحياة الأخرى عقيدة الايمان ، وبهما معا يرتبط الانسان في رحلته الشاقة الطويلة بالكون .

---

(١) الأعراف : ٣٢ .

٥ ـ استدل القرآن على حقائق الايمان الكبرى بأضخم ما في الكون من عناصر وهما السموات والأرض ، كما استدل على ذلك أيضا بعناصر الكون الأخرى كالليل والنهار ، والماء والسحاب ، والزرع والشجر ، والطير . وقد لوّن هذا الاستدلال بأساليب مختلفة استجاشة للأحاسيس وتحريكا للنفوس ، للوصول الى تحقيق أغراضه الفكرية . . فاستدلاله على البعث والنشور مثلا قد تمّ بأساليب متنوعه ومشاهد متباينة وهي : السماء ، والأرض ، والماء ، والنبات ، والليل والنهار .

٦ ـ جعل الله بين الانسان والكون لغة خفية قوامها الانسجام والألفة ، والمودة والرحمة ، وبذلك حبب هذا الكون للانسان : فعلاقة السماء بالأرض علاقة عطاء وتفضل وتكامل . فالماء ينزل من السّماء رحمة فتهتز له الأرض فاذا هي تربو وتنبت من كلّ زوج بهيج . والبحر في التعبير القرآني يمّ من التيمم ، والماء غيث لأن فيه اغاثة ، والرياح مبشرات بالرحمة .
وليس هناك صراع بين عناصر الكون والانسان . فلا عداوة بين الانسان والكون ، ولا مكان لمفهوم (قهر الطبيعة) وقد أودع اللّه الانسان من الاستعدادات والقدرات ما يسمح له بالتعرف على بعض نواميس الكون واستخدامها في حاجته .

٧ ـ ووجه القرآن القلب البشري لتلمس جمال الكون كلّه . لأن ادراك جمال الوجود هو أقرب وأصدق وسيلة لادراك جمال خالق الوجود . والجمال عنصر أصيل في مفهوم القرآن للحياة . وليست النعمة هي مجرد تلبية الضرورات من طعام وشراب وركوب ، بل هي تلبية لحاسة الجمال ووجدان الفرح والشعور الانساني المرتفع على ميل الحيوان ، وحاجة الحيوان . .ولقد عرضت في مبحث الاحساس الجمالي كيف وجّه القرآن الحس البشري الى الجمال في بناء السماء ، وفي حدائق الأرض البهيجة ، وفي البحار . . وحيثما مدّ الانسان بصره الى مجالي الكون طالعه الجمال . . في الضحى الرائق ، والليل الساجي ، وفي الأنعام .

٨ ـ وعناصر الكون لا تستوي والانسان في المنزلة ، ولا ترقى عليها أيضا ، وانما هي دونه في سلم الرقي الكوني . وهي خاضعة له ، مسخّرة لمنفعته ، لا فرق بين الحيوان الذي سخّر لحمله من مكان الى مكان ، والنبات الذي جعل له فاكهة وطعاما ، وبهجة وزينة . والموجودات الكونية ليست الاّ مظهرا من مظاهر تكريم هذا الانسان واعلاء شأنه واشعاره برئاسته لهذا العالم المحسوس ﴿ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البرّ والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير مما خلقنا تفضيلا ﴾[1] .

والأنعام دون الانسان منزلة ما لم يحدّ عن الحق . فلا قدسية للحيوان وهو موصوف بالضلال والغفلة . ولا قدسية للحجر وقد اقترن في مفهوم القرآن بالعذاب .

٩ ـ والقرآن لم يقطع الصلة بين النعم الدنيوية والنعم الأخروية ، ولذلك كانت مشاهد الكون تقترن بصور من الجنة وأنهارها وزروعها وأثمارها . كل ذلك حملا للانسان على الايمان بالله وحثا له على التقوى والعمل الصالح .

***

وبعد .

فلعل هذه الدراسة تفيد الدارسين وتفتح آفاقا جديدة أمامهم لينهلوا من معين الكتاب الخالد ، الذي ما زال يمدنا بأقباس من نوره في حياتنا وأدبنا ودراستنا .

وشكرا لله فهو الموفق لكلّ خير .

---

(١) الاسراء : ٧٠ .

المصادر والمراجع

المختصرات والرموز

الرمز	ما يدل عليه
/	علامة تفصل بين عنوان المؤلف وبيانات التأليف .
. -	علامة تفصل بين المؤلف والطبعة . . وبين الطبعة والتاريخ للنشر ، وبين بيانات النشر والتوريق . . الخ
؛	علامة بين المؤلف وبين المترجم أو المحقق .
،	علامة بين تاريخ النشر ومكان الناشر .
:	علامة شارحة للعنوان .
جـ	جزء .
مج	مجلد
د. ت	دون تاريخ نشر
د. م	دون مكان نشر
د. ن	دون ناشر
ط	الطبعة
. . .	علامة اسقاط لما تمّ حذفه من كلمات
ت	سنة الوفاة

* : الاسلام بين العلم والمدنية/ تأليف محمد عبده . ـ القاهرة ، دار الهلال ، ١٩٦٠ . ـ (الهلال ١١٤) .
الاسلام في عصر العلم/ تأليف محمد أحمد الغمراوي ـ . ط ١ ـ. القاهرة ، دار الانسان ، ١٣٩٣ هـ/ ١٩٧٣ م .
الاسلام والطب الحديث/ تأليف عبد العزيز اسماعيل . ـ القاهرة ، مكتبة الاعتماد ، ١٣٥٧ هـ .
* : آيات الله في الآفاق/ تأليف محمد أحمد العدوي . ـ ط ١ . ـ القاهرة ، مطبعة المنار ، ١٣٥٢ هـ/ ١٩٣٣ م .
* : آيات الايمان بالله/ تأليف عبد المنعم أحمد تعليب . ـ ط ١ . ـ الكويت ، دار القلم ، ١٣٩٤ هـ/ ١٩٧٤ م .
* : تفسير ابن كثير : تفسير القرآن العظيم/ تأليف ابن كثير ، أبي الفداء اسماعيل ابن كثير القرشي الدمشقي (ت ٧٧٤ هـ) . ـ القاهرة ، مطبعة الحلبي ، د . ت . ـ ٤ مج .
* : تفسير البيضاوي/ تأليف البيضاوي ، ناصر الدين عبد الله بن عمر (ت ٦٨٥ هـ) . ـ د . م الطبعة العثمانية ، ١٣٠٥ هـ . ـ مصور عن طبعة استانبول .
* : تفسير جزء تبارك / تأليف محمد عبد القادر المغربي . ـ القاهرة ، المطبعة الأميرية ، ١٣٦٦ هـ/ ١٩٤٧ م .
* : تفسير جزء عم/ تأليف محمد عبده . ـ القاهرة ، مطابع الشعب ، ١٩٠٣ م .
* : تفسير الزمخشري : الكشاف عن حقائق التنزيل وعين الأقاويل في وجوه التأويل/ تأليف الزمخشري ، جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي (ت ٥٣٨ هـ) . ـ القاهرة ، مطبعة الحلبي ، ١٣٨٥ هـ/ ١٩٦٦ م .
* : تفسير الطبري : جامع البيان في تفسير القرآن/ تأليف الطبري ، محمد بن جرير أبي جعفر (ت ٣١٠ هـ) ، تحقيق محمود شاكر . ـ القاهرة ، دار المعارف . ـ ١٦ مج .
* : التفسير العلمي للآيات الكونية/ تأليف حنفي أحمد . ـ القاهرة ، دار المعارف ، د . ت .

* : تفسير القرآن العظيم/ تأليف محمد محي الدين عبد الحميد . ـ القاهرة ، المكتبة التجارية ، ١٩٣٨ م .
* : تفسير القرآن الكريم/ تأليف محمود شتلوت . ـ ط ٤ . ـ القاهرة ، دار القلم ١٣٨٦ هـ/ ١٩٦٦ م .
* : التفسير القرآني للقرآن/ تأليف عبد الكريم الخطيب . ـ القاهرة ، دار الفكر العربي ، ١٩٦٧ م ـ ٣٠ ج .
* : التفسير الكبير : مفاتيح الغيب/ تأليف الفخر الرازي ، محمد بن عمر بن الحسين ابن علي (ت ٦٠٦ هـ) . ـ القاهرة ، عبد الرحمن محمد ، ١٣٥٢ هـ/ ١٩٣٣ م . ـ ٣٢ مج .
* : تفسير المراغي/ تأليف أحمد مصطفى المراغي . ـ القاهرة ، مطبعة الحلبي ، ١٣٨٢ هـ/ ١٩٦٢ م . ـ ١٥ مج في ٣٠ ج .
* : تفسير المنار/ تأليف محمد رشيد رضا . ـ ط ٤ ـ . القاهرة ، دار المنار ١٣٧٣ هـ/ ١٩٥٤ م . ـ ١٢ مج .
* : التفسير الواضح/ تأليف محمد محمود حجازي . ـ القاهرة ، مطبعة الاستقلال ، ١٣٩٢ هـ/ ١٩٧٢ م . ـ مج .
* : زاد المعاد في هدى خير العباد/ تأليف ابن قيم الجوزية ، شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر (ت ٧٥١ هـ) . ـ القاهرة ، مطبعة الجلبي ، ١٣٩٠ هـ/ ١٩٧٠ م . ـ ٣ مج .
* : السموات السبع/ تأليف محمد جمال الدين الفندي . ـ القاهرة ، الهيئة المصرية ، ١٩٧٣ م .
* : سورة الرحمن وسور قصار/ تأليف شوقي ضيف . ـ القاهرة ، دار المعارف ، ١٣٧٠ هـ/ ١٩٧١ م .
* : صلوات على الشاطى/ تأليف أحمد الشرباصي . ـ القاهرة ، الكتاب العربي ١٩٥١ م .
* : العلم يدعو للايمان/ تأليف كريس موريسون ؛ ترجمة محمود صالح الفلكي . ـ ط ٦ ، القاهرة ، النهضة المصرية ، ١٩٧١ م .

* : غرائـز الحيوانـات/ تأليف محمـد محمـد فياض . ـ القاهـرة ، دار المعـارف ، ١٩٤٦ م . ـ (اقرأ ٤٨) .
* : الفلسفة القرآنية/ تأليف عباس محمود العقاد . ـ القاهرة ، لجنة التأليف . . . ، ١٩٤٧ م .
* : في رحاب البيان القرآني : سورة الرعـد/ تأليف محمـد السعـدي فرهـود . ـ القاهرة ، دار الطباعة المحمدية ، ١٣٩٨ هـ/ ١٩٧٨ م .
* : في سنن الله الكونية/ تأليف محمد أحمد الغمراوي . ـ ط ١ . ـ القاهرة ، لجنة التأليف ، ١٣٥٥ هـ/ ١٩٣٦ م .
* : في ظلال القرآن/ تأليف سيد قطب . ـ ط ٥ . ـ بيروت ، دار احياء التـراث العربي ، ١٣٨٦ هـ/ ١٩٦٧ م. ـ ٨ مج .
* : القرآن والعلم/ تأليف أحمد محمود سليمان . ـ ط ٢ . ـ بيروت ، دار العودة ، ١٩٧٤ .
* : القرآن والعلم/ تأليف محمد جمال الدين الفندي . ـ القاهرة ، دار المعرفـة ، د. ت .
* : الله والعلم الحديث/ تأليف عبد الرزاق نوفل . ـ القاهرة ، الناشرون العرب ، ١٩٧١ م .
* : مع الله : نظرات في الكون والحياة/ تأليف عبد الجواد رجب . ـ ط ٢ ، القاهرة دار الإعتصام ، ١٣٩٤ هـ/ ١٩٧٤ م .
* : مع الله في السماء/ تأليف احمد زكي . ـ القاهرة ، الهلال ، د. ت.
* : معجزة القرآن/ تأليف نعمت صدقي . ـ القاهرة ، عالم الكتب ، ١٣٩٠ هـ/ ١٩٧١ م .
* : المعجزة الكبرى/ تأليف محمد أبو زهرة . ـ القاهـرة ، دار الفـكر العربـي ، ١٩٧٠ م .
* : معجم مفردات ألفاظ القرآن/ تأليف الراغب الأصفهاني ، الحسين بن محمد بـن الفضـل (ت ٥٠٢) ؛ تحقيق نديم مرعشلي . ـ بـيروت ، الكاتـب العربـي

١٣٩٢ هـ/ ١٩٧٢ م .
* : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم/ تأليف محمد فؤاد عبد الباقي . ـ القاهرة ، مطابع الشعب ، د.ت.
* : من اشارات العلوم في القرآن/ تأليف عبد العزيز سيد الأهل . ـ بيروت ، النهضة الحديثة ، ١٣٩٢ هـ/ ١٩٧٢ م .
* : المنتخب في تفسير القرآن الكريم/ تأليف المجلس الأعلى للشئون الاسلامية . ـ ط ٥ . ـ القاهرة ، المجلس . . . ، ١٣٩٥ هـ/ ١٩٧٥ م .
* : من الخالق الله أم الصدفة ؟/ تأليف رشدي مدبولي حسن . ـ القاهرة ، مكتبة الزهراء ، ١٩٧٤ م .
* : من روائع الاعجاز في القرآن الكريم/ تأليف محمد جمال الدين الفندي . ـ القاهرة ، المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ١٣٨٩ هـ/ ١٩٦٩ م .
* : النيل في ضوء القرآن/ أحمد الشرباصي . ـ ط ٢ ، القاهرة . ـ دار الكتاب العربي ، ١٩٥٢ م .

***

المحتوى


Bibliotheca Alexandrina
0298168